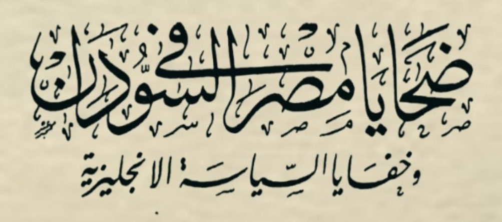


للباحث المطلع

« محزون »

طبع على نفقـــة دائرة

حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون

١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م

مطبعة صلاح الدين الكبرى بالاسكندرية



الورشة العربية للتجليد الفني



٨ عطفة الجوانية - الجمالية - ت ٥٩١٨٢٠٥

ضحايا مصر في السودان

وخفايا السياسة الانجليزية

للباحث المطلع

« محزون »

طبع على نفقـــة دائرة

حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون

١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م

مطبعة صلاح الدين الكبرى بالاسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء الكتاب

أهدى كتابى هذا الى حضرة مولاى صاحب السمو الامير الجليل المحبوب عمر طوسون عين الأمة المصرية وانسانها وقلبها ولسانها وحفيد محيي مصر ومنشىء السودان واسمى من قدر السودان قدره واجل من اشاد بذكره واعظم من نادى بوجوب رده الى حظيرة الوطن الاكبر

والى أرواح أولئك الشهداء الابرار الذين رووا أرض السودان بدمائهم الزكية تفانيا فى الابقاء على العلاقات التاريخية والصلات الابدية التى تربط مصر به من مبدأ الزمان وكتبوا بذلك أخلد صفحة فى سجل أشرف تضحية (أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

المؤلف

السودان

النيل نيلنا والسودان بلادنا
فتعالوا الى كلمة سواء بيننا

تمهيد

السودان روح مصر وحياتها — ان تركته لايتركها وان تركها لاتتركه — مافى هذا أقل شك ولا أدنى ريب فليعلم من لايعلم أن كل حل للمسألة المصرية من شأنه أن يفصل السودان عن مصر انما هو حل فاشل مقضى عليه بالخيبة الدائمة والنحس المستمر . وسوف تظل مصر ساخطة غاضبة مالم يبق السودان جزءا منها لايتجزأ وانه خير للمصريين السمر والمصريين البيض ان يرسفا معا الى الابد فى أغلال الاستعباد من أن يبت فى مصير كل منهما على حدة

وبعد فقد آن للانكليز ولمن يود من ابناء هذا الوطن التعس لو يجاريهم فى اعتبار أن مصر شيء والسودان شيء آخر ، ان يرجعوا الى التاريخ القديم حتى يتبين لهم انه لم يكن ثمت فى العالم مايدعى بالامبراطورية البريطانية بل بريطانيا الصغرى أيام ان فتح فراعنة الاسرة السادسة القديمة بلاد السودان منذ اكثر من اربعة آلاف

من الاعوام . وان صـــلات الدم ووشائج القرابة والنسب تربطنا بالسودانيين من اقـــدم العهود . وانه ثبت ان عرب الرعاة لما اغاروا عـــلى مصر نزح الكثيرون من أهلهـــا الى مهجرهم الطبيعى ببلادهم الجنوبية فتزاوجوا وتناسلوا وامتزجوا باخوانهم هناك امتزاج الماء بالماء.. ولما ان قيضت الاقدار لمصر فرعونهـــا احميس لطرد الرعاة من بلاده تعـــاون المصريون والسودانيون جميعا على اجلاء الغاصب وغسل العار . وقبيل أن يفعلوا بنى فرعون مصر بابنة عاهل السودان . وأن مصر ماأبت على السودان أن يحكمها بعد مانشأ وشب وترعرع فى كنفها فخضعت لحكمه زهاء النصف قرن فى عهد الملك بعنخى ميامون وخلفائه . على نحو مايفعل الاخوة حيث يسود الاقوى والارشد ـ وان اولياء عهد مصر كان يجلس اغلبهم على عرش السودان قبل ان يؤول اليهم ملك مصر

ومالنـا والتاريخ القديم ـ فلنـــدعه جانبا ـ ولنرجع الى التاريخ الحديث ـ أفلم يأن لاحد من غـــلاة المستعمرين ان يدلنا على عدد الفرق الانكليزية التى استعان بها عزيز مصر محمد على فى فتح السودان ذلك الفتح الذى بدأ وتم بناء على رغبة اهله انفسهم ـ اذ وفد الامير بشير ود عقيد وفى ركابه شاعر السودان يترنم بقوله

(ولاّك مقهور . ولاّك منهور . بطر جيت شاكى

وكم تلبـــا كبير منك . يبيض و يــكاكى)

(سلام عليك يامصر العزيزة . الليله مكّنا جاكى)

(ومعناه ـ ان المليك السودانى لم يأت الى محمد على مقهورا ولا منهورا فبطرا يشكو لأن اكبر اعدائه بجأر منه ـ وانما جاء بخطب ود مصر العزيزة)

اللهم ان محمد على لم يستعن بعد الله بغير جيشه المظفر بقيادة نجله الامير الشهيد اسماعيل الذى لقى حتفه على منوال اسوأ مما حدث لبطلهم غوردون

وكم انفقت انجلترا من مال وبنين فى ربوع السودان فى القرن الماضى . وكم مد فيه رجالها من الخطوط الحديدية وازالوا من السدود النيلية ومهدوا من الطرق الصحراوية وعبدوا من الاحراش والغابات واقاموا من المرافق والمنشآت

ولندع التاريخ الحديث ايضا لنعود الى الاحدث . اى منذ قيام الثورة المهدية . ولنرجىء التكلم على الاسباب التى ادت الى تلك الثورة لنمحصها بعد حين ـ ولنبحث الآن فيما ترتب عليها بعدما تسيطر الانكليز علينا

أفى الحق اننا كنا بحاجة الى اخلاء السودان بعد ماقبض القائد النابه الذكر عبد القادر باشا حلمى على ناصية الحال واوشك ان يقضى على الثورة قضاء مبرما . ام كان ذلك لحاجة فى نفس جون بول لم تك تقضى الا باستدعاء القائد المصرى تمهيدا لنكبة هكس

شىء من الصراحة ـ ايها الناس ـ فقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبى وعلت الوهاد الربا ـ الم تضح انكلترا بهكس تخلصا من البقية

الباقية من الجيش العرابى . الم تضح بغوردون تنفيذا لسياسة اجلاء المصريين عن السودان . الم تنتهز فرصة مقتل السردار لتلتهم السودان وتبتره بترا من جسم الوطن الاكبر

هاهى ضحايانا وضحاياكم من وقت قيام الثورة المهدية حتى مقتل التعايشى اعنى من ١٢ اغسطس سنة ١٨٨١ الى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ قد توخيت الدقة المتناهية فى احصائها كيلا اتهم بالتحيز والتحامل ولم اقدم على اعلانها الا بعد ان راجعت كل ماوقع بيدى من الكتب والمستندات التاريخية وانا بالسودان اولا وبمصر اخيرا مثني وثلاث وقارنت بين ماورد فيها وما دونته بمذكراتى من اقوال المعاصرين من شهود الرؤية من مواطنينا هنا وهناك الذين اشتركوا فى معظم الوقائع ـ ثم قابلت بين هذا كله وما جاء بمؤلف نعوم بك شقير وهو . خلاصة وافية لما كتب مختلفو المؤرخين عن السودان وقد اشتهر صاحبه بأنه من اكثر الباحثين اعتدالا واقلهم جميعا اسرافا فى تقدير عدد الضحايا فضلا عن كونه قد شاهد بعينه اغلب وقائع الفتح واستشهدت باقوال كل من سلاطين باشا فى وقائع دارفور وابراهيم فوزى باشا فى وقائع الخرطوم لانهما حضرا تلك الوقائع بنفسيهما

وحسبى الآن ان ادع للأرقام الكلام

ضحايانا وضحاياهم

من الارواح

الوقائع الاولى

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
واقعة آبا	١٢ اغسطس سنة ١٨٨١	٤٠٠		
« راشد بك	٩ ديسمبر سنة ١٨٨١	٦٠٠		قتل فى هذه الموقعة ١٠٠٠ من الشلوك وملكهم
« الشلالى	٢٩ مايو سنة ١٨٨٢	٤٠٠٠		قتل علاوة على رجال الجيش ٢٠٠٠ من الاعراب الموالين لمصر
		٥٠٠٠		

وقائع الجزيرة

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع ابن المكاشف . والشريف احمد طه . ومحمد زين . وتيقو	ابريل ـ يونيه سنة ١٨٨٢	١٠٠٠		
واقعة الجبلين	يوليه «	٢٠٠٠		
وقائع شات . والدويم . وام سنيطة وحلة حجاج	اغسطس ـ ديسمبر «	١٠٠٠		
وقائع معتوق . والداعى . وسقدمويه والتبنه	يناير ـ مارس ١٨٨٣	٥٠٠		
		٤٥٠٠		

وقائع كردفان

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع البركة وبارا والطيارة والابيض الأولى	مايو ـ سبتمبر ١٨٨٢	٣٠٠٠		ذبح فى الطيارة نحو الـ ١٠٠٠٠ تاجر مصرى ونهبت بضائعهم
واقعة على بك لطفى أبو كوكة	سبتمبر »	٢٠٠٠		حدثت الموقعة فى حلة كو ود جفون
حصار بارا وسقوطها	٥ يناير ١٨٨٣	١٠٠٠		
» الابيض وسقوطها	١٩ يناير »	٣٠٠٠		جمع من الاسلاب ٣ مليون ريال و ٢٥٠ الف جنيه. واربعة آلاف أوقية ذهب خام. وخمسة قناطير حلى. و ٤٠ قنطار فضة. وقتل وسبى نحو الـ ١٠٠٠٠ فتى وفتاة
واقعة المرابيع	ابريل »	٣٠٠		
» هكس	٥ نوفمبر »	١٠٠٠٠	١	وتدعى موقعة شيكان
		١٩٣٠٠	١	

وقائع دارفور

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
ثورة الشيخ المادبو . وحصار دارة وكبكبية . والفاشر وسقوطها	يوليه ١٨٨٢ يناير ١٨٨٤	٣٠٠٠		قتل فى هذه الوقائع ٧٠٠٠ من الاعراب الموالين للحكومة . وعذب المصريون والمصريات أشد العذاب

وقائع بحر الغزال

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع الجانق والشيخ يانكو وبحر بيرى	١٨٨٢ — ١٨٨٤	٥٠٠	١	اسر ليتون بك مدير بحر الغزال ومات حتف انفه بالاسر

وقائع سنار

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع الشريف انجضو وفامكة وودمدنى وفداسى وابى الحسنى والشيخ غالب	١٨٨٣ — ١٨٨٤	١٠٠٠		

وقائع طوكر وسواكن وسنكات

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع سنكات . وقباب . وابنت . والتيب الاولى . وطماى الاولى	اغسطس — ديسمبر سنة ١٨٨٣	١٥٠٠		
واقعة التيب الثانية	فبراير ١٨٨٤	٣٠٠٠		
حصار سنكات وسقوطها	« «	٦٠٠		
« طوكر «	« «	٥٠٠		
واقعة التيب الثالثة	« «		١٨٩	لم استدل على عدد القتلى من الجيش المصرى فى
« طماى الثانية	مارس «		٢٢٠	هذه الوقائع ومع انه لايوجد شك فى كونه
« تل هشيم	« «		٤٨	اضعاف ماقتل من الانكليز كما هى العادة
« توفرك	« «		٢٩٦	فقد ضربت صفحا عن تقديره
		٥٦٠٠	٧٥٣	

وقائع السودان الشرقى

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع مربود . وقدبى . وزرقة	نوفمبر وديسمبر ١٨٨٣	٥٠٠		قتل فى هذه الوقائع وسواها بتلك الجهات نحو
« الجمام . والعشرة . وسدينة	فبراير ومارس ١٨٨٤	٥٠٠		العشرة آلاف من رجال القبائل الموالين لمصر
واقعة قلوسيت	٥ يناير ١٨٨٥	١٠٠٠		وغيرهم من شيعة السادة المرغنية
		٢٠٠٠		

وقائع خط الاستواء

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع خط الاستواء	١٨٨١ — ١٨٨٩	٢٠٠٠		

وقائع بربر

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
حصار بربر وسقوطها	١٩ مايو سنة ١٨٨٤	١٥٠٠		وجد الثوار بالخزينة ٥٥٨١٢ جنيها كانت مرسلة الى مصر. و ٨٠٠٠ كانت محصلة . وذبح ٣٠٠٠ مصرى

وقائع دنقلة

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع دنقلة	سبتمبر ١٨٨٤	٤٠٠		

وقائع حصار الخرطوم

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع الحلفاية الاولى . والشرق والحلفاية الثانية	مارس سنة ١٨٨٤	٣٥٠٠		
وقائع القطينة . والكلاكلة . وبرى . والجريف . والحلفاية الثالثة	يوليه واغسطس «	٢٥٠٠		
وقائع ابوحراز . والعيلفون . وام ضبان	سبتمبر «	٨٠٠٠		
بعثة استيوارت	« «	٢٠	٢	الكولونيل استيوارت والمستر باور قنصل انكلترا بالخرطوم
حصار ام درمان وسقوطها	٥ يناير ١٨٨٥	٣٠٠		
سقوط الخرطوم	٢٦ يناير «	٨٠٠٠	١	احصى من الغنائم ٣٠٠ الف جنيه . و ٣٠٠ الف ريال و ٣٠ قنطار حلى . و ٤٠٠ قنطار فضة . وسيت ٣٥٠٠٠ فتاة . وقتل ٢٤٠٠٠ مصرى من السكان
		٢٢٣٢٠	٣	

حملة انقاذ غوردون

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع ابو طليح والمتمة وكربكان	١٧ يناير - ١٠ فبراير ١٨٨٥		٣٤٦	لم تذكر خسائر مصر مع ان الجنود المصرية حلت البواخر فوق الشلالات ثلاثة ايال

حصار كسلا

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
حصار كسلا وسقوطها	٢٩ يوليه سنة ١٨٨٥	٤٥٠٠		

حصار سنار

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
حصار سنار وسقوطها	١٩ اغسطس سنة ١٨٨٥	٥٠٠٠		صودر جميع الذهب الذى وجد لدى الاهالى وكانوا اغنى اهل السودان

وقائع الحدود

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع الحدود	١٨٨٥ — ١٨٩١	١٥٠٠		

استرجاع طوكر

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
واقعتا هندوب . والجميزة	١٨٨٨ — ١٨٩١	٢٠٠		

تجريدة دنقلة

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع تجريدة دنقلة	ابريل — سبتمبر سنة ١٨٩٦	٢٥٠		

وبـــاء الكولـــيرا

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وباء الكوليرا	١٥ يونيه — ٢٠ اغسطس ١٨٩٦	١٦٠	١٩	

وقائع الفتح الأخير

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
واقعة أبو حمد	اغسطس سنة ١٨٩٧	٨٦		
« عطبرة	ابريل « ١٨٩٨	٤٣٣	١١٧	
« ام درمان	٢ سبتمبر « ١٨٩٨	٣٣٠	١٦٠	
« الرصيرص	٢٦ ديسمبر « ١٨٩٨	١٤٦		
واقعتا أبو عادل . والجديد	٢٣ و ٢٤ نوفبر « ١٨٩٩	٢٦		
		١٠٢١	٢٧٧	

فجملة الضحايا من الجيش المصرى ٨٠٠٠٠ تقريبا (٧٩٧٥١) مقابل ١٤٠٠ من الجيش الانكليزى

ولرب معترض يقول . وهل كانت لمصر كل تلك الجنود بالسودان ؟ ودفعا لهذا الاعتراض أذكر فيما يلى بيان الجيش الذى كان مرابطا بالسودان قبيل الثورة : —

١٩٥٠	ضابطا	وجنديا	بدنقله
٢١٧٠	»	»	ببربر
٧٤٧٠	»	»	بالخرطوم
٢٣٥٠	»	»	بسنار
١٦١٠	»	»	بالقلابات
٨٠	»	»	بالجيرة
٢٠٠	»	»	بالقضارف
٣٩٤٠	»	»	بكسلا
٩٢٠	»	»	باميديب
١٩٠٠	»	»	بسنهيت
٣٤٧٠	»	»	بهرر
٥٨٣٠	»	»	بكردفان
٤٨٦٣	»	»	بدارفور
٨٨٦	»	»	ببحر الغزال
٢١٣١	»	»	بخط الاستواء
٤٠٤٩٠			الجملة

فلما تولى أمر السودان المرحوم عبد القادر باشا حلمى ووجد الضعف سائداً على حاميات الخرطوم وسنار وكردفان استقدم بضعة طوابير من الجنود المرابطة على حدود الحبشة وعزز بها تلك الحاميات ولما تحقق لديه أنها لا تكفى حرض المصريين المقيمين بالسودان على التطوع وجند رقيقهم تعزيزاً للجيش المدافع ويأسا من امداد مصر التي كانت فى معمعان الثورة العرابية يومئذ وتولى بنفسه تدريب متطوعى الخرطوم — ولما جاء غوردون أمر بالتطوع فتطوع فى بضعة أيام ٣٢ (أورديا) بكل أوردى عدد يتراوح بين المائة والثلثمائة جندى — وقبيل سقوط الخرطوم ساق كل قادر على حمل السلاح من سكانها إلى خط النار - وكان بالسودان حوالى ٣٠٠٠٠ موظف مدنى تطوعوا كلهم للقتال ولم يعـد منهم الى مصر إلا أفراد

وحالما شرع فى التمهيد لنكبة هكس سيق الى السودان من فلول الجيش العرابى :—

الألاى الاول بقيادة الأمير الاى سليم بك عونى وعدد رجاله		٢٤٠٠
« الثانى بقيادة الأميرالاى السيد بك عبد الرازق «	»	٢٥٠٠
« الثالث بقيادة اللواء ابراهيم باشا حيدر «	»	٢٦٠٠
« الرابع بقيادة الأمير الاى رجب بك صديق «	»	٣٠٠٠
الطوبجية والسوارى بقيادة الأميرالاى عباس بك وهبى «	»	٢٤٠٠
والجملة		١٢٩٠٠

ولما حدثت النكبة وأسقط فى يد الحكومة ورؤى أن الجيش

الجـــديد الذى تألف بعـــد حـل الجيش العرابى وعـــدد رجاله لايتجـــاوز الستـة آلاف لم يتم تدريبه ولايستطـــاع الاستغناء عنه وكانت السياســـة الأنكليزية مصممة على إرســـال حمـلة بيكر بحجة إنقـاذ حاميتي سنكات وطوكر جمع من الرديف :ــ

٦٥٠	جنديا من الاسكندرية
٥٠٠	« « القـاهرة
٤٥٠	« « عساكر مصوع
٤٢١	« « عساكر سنهيت
٤٢٩	« « الأتراك الباشبوزق
٦٢٨	« « عساكر الزبير باشا
١٢٨	« « الطوبجية
٣٠٠	« « الفرسان المصريين
١٥٠	« « الفرسان الباشبوزق
٣٦٥٦	والجملة

مات خمسة اسداسهم فى أول موقعة

الضحايا من غير العسكريين

هذا وقد أجمع المؤرخون والمعاصرون على أن عدد الضحايا من المصريين المدنيين الذين لم يشتركوا فى الحروب فاق كل حصر — ونحن نقدرهم بما لا يقل عن ربع مليون شخص — وندلى فيما يلى بالأدلة التاريخية والحوادث الواقعية التى تؤيد هذا التقدير :—

أولا

كانت مدينة الطيارة أكبر مركز لتجارة الصمغ وريش النعام وسواهما من محصولات كردفان وكان بها زهاء العشرة آلاف تاجر وعامل جلهم من المصريين فذبحوا على بكرة أبيهم حيث اعتزم الفقيه المنة — زعيم قبائل الجمع والجوامعة وأخطر الثوار فى صحراء كردفان - أن يقضى على جميع الذكور حتى الأجنة فى بطون أمهاتها خشية أن تكون ذكورا . وقد بقرت بطون نحو ألف سيدة حبلى لهذه الغاية الوحشية . وكان قومه يقذفون بالأطفال فى الجو ويتلقونهم على أسنة الرماح - الأمر الذى استنكره المهدى نفسه

ثانيـــاً

كان عدد سكان مدينة الأبيض حاضرة كردفان يربو على الخمسين ألفا أغلبهم من المصريين فلما سقطت المدينة لم يبق من هؤلاء سوى بضعة آلاف حيث قضى الجوع على أغلبهم أثناء الحصار إذ بلغت أسعار الحاجيات

أقصى مايتصوره العقل فكانت الأقة من لحم الحمـــير تباع بمائتى ريال وأكل الكثيرون بعضهم بعضا فضلا عمن ماتوا أثناء التعذيب للدلالة على ماخبئوه من أموالهم ، وسبيت جميع الفتيات فانتحر بعضهن والكثيرون من أوليـائهن

ثالثـــا

كان محمد بك خالد زقل ابن عم المهدى وكيلا ثم مديرا لمديرية دارة بدارفور — فلما أمّره ابن عمه على جميع الأقليم انتقم شر انتقام من زملائه ومرءوسيه المصريين ونكل بهم أشد تنكيل لدرجة حملت ضابطـين من زملائه على تفضيـل الانتحـار السريع على الموت البطىء الذى كان يلاقيه اخوانهم ومواطنوهم — وحكاية الصـاغ حماده افندى ماتزال مضرب الأمثال فى السودان حتى اليوم فقد ضرب ثلاثة آلاف سوط فى ثلاثة أيام متوالية بمعدل ألف سوط فى اليوم وكانت تملأ جروحه بالملح والفلفل امعانا فى تعذيبه كى يدل على أمواله المخبوءة — ولـكنه مات دون أن يفعـل مصرا على أن المـال ماله وأنه ورثه عن أبيه وأن المهدى ماكان أخا له حتى ينازعه تراثه

رابعـــا

ذبح الثوار جميع التجـار المصريين فى كل انحـاء السودان مع وكلائهم وعمالهم وذلك لسلب بضائعهم

خامســا

ذبح كافة المصريين الذين كانوا يقيمون بمديرية بربر — ومن

عجب أن محمد الخير زعيم الثوار فى تلك المديرية أمر بعدم التعرض للنساء كأن تأييمهن وتيتيمهن دون هتك اعراضهن ـ وقد شكر له المؤرخون هذا الصنيع باعتبار أن بعض الشر أهون من بعض

سادسا

قتل من سكان الخرطوم فى يوم سقوطها ٢٤٠٠٠ رجل وبضع نساء وفى رواية شقير بك ٣٦٠٠٠ (وهذا العدد أقرب إلى الصحة لأنه ذكر من ضمنه الجيش المدافع الذى قدرنا نحن ضحاياه يومئذ بثمانية آلاف فقط) وسبيت ٣٥٠٠٠ فتاة وسيدة من كرائم وعقائل المصريين — ولقد تحدثت إلى الكثيرات من بقاياهن فأسمعننى من أنباء ما ارتكب معهن من الفظائع والمنكرات مايفرى الكبد ويهد العضد

سابعا

كان سكان حامية كسلا بعائلاتهم وأولادهم قبيل حصارها يزيدون على الخمسين ألفا اكثرهم من المصريين فكانت البقية الباقية من الجميع يوم سقوطها ٤٨٠٠ شخص

ثامنا

كانت مدينة سنار أحفل مدن السودان بالمصريين بعد الخرطوم فبلغ عددهم يوم سقوطها ثلاثة آلاف لاغير

وهكذا كان الشأن فى باقى الجهات

ولقد وقع إلينا الدليل الذى لا ينقض ووقفنا على عظم الكارثة التي أودت بحياة أولئك الأبرياء وفداحة الخطب الذى ألم بمصر بفقدهم وفقد السودان معهم :-

ذكر المرحوم فوزى باشا فى كتابه أن غوردون عمل احصاء رسميا للمصريين المقيمين بالخرطوم قبيل سقوطها (وأنا أرجح أن التقدير إنما كان لجميع المصريين المقيمين بالسودان لا بالخرطوم وحدها) فبلغوا مائتي الف نفس وارسل تلك الاحصائية مع بعثة استيوارت فى سبتمبر سنة ١٨٨٤ — فلما سقطت الخرطوم ومات المهدى أمر التعايشى ذات يوم أن يجتمع المصريون فى صعيد واحد — وكان يسميهم (فضلة سيف المهدى) فاجتمعوا وبلغ عددهم يومئذ خمسة آلاف من الرجال

وفى اعتقادى أنه كان للمجاعة المروعة التى حدثت فى عهد الخليفة (١٨٨٨ — ١٨٨٩) أثر يذكر فى القضاء عليهم فقد فتكت بمئات الالوف من أهالى السودان أنفسهم ولاريب أنها كانت بالمصريين أفتك وافدح

ومن هذا يتضح للملأ أنه ليست هناك أدنى مبالغة فى تقدير الضحايا بربع مليون — على أننا لو تساهلنا إلى أبعد حدود التساهل وافترضنا أن هذا العدد يشمل الجيش المقاتل — لكانت النتيجة أن خسارة مصر ربع مليون مقابل ١٤٠٠ إنكليزى — أستغفر الله — فان نصف هؤلاء أو أكثر كان من الهنود — فقد كانت جنود حملة الجنرال جراهم بسواكن كلهم من أولئك الهنود التعساء

وذلك غير من قتل من جيشنا فى المدة من أول سنة ١٩٠٠ الى آخر سنة ١٩٢٤ فى الفتن والقلاقل الداخلية التى أربت على المائة والعشرين فى عصر العدالة الانكليزية وبسببها ـ وكان بعضها حروبا طاحنة لاحركات صغيرة ـ وما العهد بمذبحة (ود حبوبة) بالكاملين على النيل الأزرق وموقعة الكتفية المشهورة فى سنة ١٩٠٨ ولا بثورة النوبر والانواك فى سنة ١٩١٢ ببعيد

ولعلى أوفق قريبا لاحصاء خسائرنا وخسائرهم فى هذا العهد اتماما للبحث

رجالنا ورجالهم

ولربما زعم الانكليز ـ كعادتهم ـ أنهم يمتازون بفقد خمسة أو ستة من أعلام رجالهم وكبار قوادهم أمثال هكس باشا والكولونيل استيوارت وغوردون باشا ولبتون بك (ولو أن هؤلاء كانوا فى الواقع موظفين بالحكومة المصرية) والجنرالين ارل واستيوارت

وردا على هذا أذكر هنا أسماء حوالى مائة شخص من أعلام رجالنا وكبار قوادنا (من رتبة بكباشى فما فوق) غير من لم أعثر على أسمائهم ممن استشهدوا اثناء الثورة :ــ

الوقائع	القتلى					
	لواء	اميرالاى	قائمقام	سنجق	بكباشى	موظف كبير
واقعة راشد بك			راشد بك ايمن			
واقعة الشلالى	يوسف باشا الشلالى		محمد بك عثمان		حسن رفقى افندى	
واقعة على بك لطفى			على بك لطفى			
سقوط الأبيض	محمد سعيد باشا	على بك شريف			محمد الفولى افندى باشا حماد « محمود حسن « نظيم «	محمد بك يس ناظر قسم كردفان

الوقائع	القتلى					
	لواء	اميرالاى	قائمقام	سنجق	بكباشى	موظف كبير
واقعة شيكان	محمد علاء الدين باشا حسين مظهر باشا	سليم عونى بك السيد عبد القادر بك حسين فهمى بك عباس وهبى « رجب صديق «		عبد العزيز بك يحيى كامل « خير الدين «		الدكتور جورجى بك حكيمباشى الحملة
وقائع دارفور					شرف الدين افندى على الطوبجى « محمد فرج «	
وقائع سنكات وطوكر وسواكن		عبد الرزاق نظمى بك	محمد توفيق المصرى بك		محمود خليل افندى محمد فهمى المصرى « كاظم «	

الوقائع	القتلى					
	لواء	اميرالاى	قائمقام	سنجق	بكباشي	موظف كبير
وقائع حصار الخرطوم وام درمان وسقوطهما	محمد على حسين باشا	بخيت بطراكى بك	سلطان عبد الله بك	مولى بك	ابراهيم سودان افندى	محمد باشا حسن مأمور المالية
	موسى شوقى باشا	محمد القبانى بك	محمد الملك بك	على »	منصور عبد العال افندى	عصمت بك مدير التلغرافات
	فرج الزينى باشا		عثمان حشمت »	ميتو »	محمد عثمان افندى	ابراهيم بك رشدى سكرتير غوردون
			فرج صالح »	عبد الهادى »	احمد حماية »	قرياقص بك القمص باشكاتب الخرطوم
			السيد امين »	محمد كرسى »	محمد دسوقى »	محمد ابراهيم بك
			سرور بهجت »	محمد قرضية »	حسين محمد »	الشيخ محمد حتيك قاضى القضاة
			يوسف عفت »	محمد السنجق »	على صقر »	الشيخ شاكر الرئيس مفتى السودان
			حسين القبانى »	نصر »	سليمان النشار »	
			احمد ابو القاسم »	بشير خشم الموس »	حسن فؤاد »	
			عبد الله العبد »	محمد نعمان »		
			عبد القادر حسن »			
			حسن العقاد »			

الوقائع	القتلى					
	لواء	اميرالاى	قائمقام	سنجق	بكباشي	موظف كبير
تابع حصار الخرطوم وأم درمان وسقوطها			مصطفى عصمت بك محمد اسلام « ابراهيم لبيب « احمد عبد الوهاب «			الشيخ محمد موسى مفتى المحاكم الشرعية الشيخ محمد السقا شيخ القراء الشيخ حسين المجدى رئيس اساتذة المدرسة الاميرية السيد فايد شيخ السجادة الاحمدية احمد بك جلاب مدير الخرطوم محمد عطيه بك صراف الخزينة
سقوط كسلا	احمد عفت باشا			حسن سليمان بك		احمد شوقى بك معاون المديرية

الوقائع	القتلى					
	لواء	اميرالاى	قائمقام	سنجق	يكباشى	موظف كبير
سقوط سنار	حسن صادق باشا		حسن عثمان الكريتلى بك			احمد مكوار بك وكيل المديرية
سقوط خط الاستواء		سليم مطر بك	حامد محمد بك فضل المولى «		مرجان افندى عبدالوهاب طلعت « على جبور « بخيت « سالم خلاف «	
فى الاسر	صالح الملك باشا فرج الله باشا					

تلكم أسماء من ذكروا فى الكتب والوثائق التاريخية ومعظمهم من كبار القواد وأعاظم الرجال كما أسلفت. ومن المؤكد أن هناك عشرات من رتبهم لم تذكر أسماؤهم وأسدل عليهم الزمان ستار النسيان وذلكم غير المئات من صغار الضباط وعظائهم (من رتبة صاغقول اغاسى فما تحتها) فقد فُقد من هؤلاء فى وقعتي شيكان والتيب نحو الخمسمائة ضابط بفضل ارشاد وحسن قيادة الجنرالين هيكس وبيكر

فلو فرضنا أن جملة من فقد من الضباط العظام — من رتبة صاغ فصاعدا — مائتان فقط لكان مجموع مافقدته انكلترا بالنسبة لمصر :—

١ ½ فى المائة من الجنود

٣ فى المائة من القواد

صفر فى المائة من الاهالى

وبهذه النسب الحقيرة يرفع الانكليز عقيرتهم مطالبين (بحق الفتح) ولا ريب عندى أن مجرد المقارنة — ان كان ثمت الى مقارنة من سبيل — يقضى قضاء أبديا على ذلك الادعاء الجرىء الذى لم يذكر له التاريخ مثيلا

ضحايانا وضحاياهم

من الاموال

أما فيما يتعلق بالأموال فلا سبيل الى المقارنة . فانكلترا لم تخسر شيئا فى حين أن مصر قد خسرت كل شيء ـ وبهذا يعترف الانكليز أنفسهم ـ ومع ذلك فلنعالج الموضوع

لا يمكن بطبيعة الحال احصاء ما انفقت مصر من مال فى سبيل تعمير السودان وتمدينه من عهد محمد على حتى قيام الثورة المهدية - وانما يستطاع أن يقال اجمالا أنها اقامت جميع المنشآت من مبان فخمة الى معسكرات ومصالح أميرية وجوامع ومدارس (ونذكر هنا أنها لم تضن على السودان باكبر علمائها فبعثت برفاعة بك ناظراً لمدرسة الخرطوم) وساعدت الاهالى على بناء دورهم بالطوب والأخشاب بدل اتخاذها من اللبن والغاب وجلود الحيوان ـ ومهدت الطرق الصحراوية ونظمت البريد ، وادخلت زراعة القطن ، وأنشأت المطبعة الأميرية ، وفتحت السدود النيلية لتسهيل الملاحة صعدا فى أعالى النيل ـ وفتحت الأصقاع النائية فى بحر الغزال ودارفور ومنجلا واوغندا وبلاد زنجبار وكفتها شر النخاسة وفظائع النخاسين ، ومدت أول سكة حديدية عرفها السودان فبلغت تكاليف خمسين ميلا منها ٤٥٠ ألف جنيه دفعتها مصر عن طيب خاطر فى عهد أشد ضائقة مالية عرفتها ، وأنشأت ترسانة كبرى لصنع البواخر والمراكب وتصليحها وقد بنيت فيها وابورات (بوردين وتل حوين والتوفيقية والمنصورة والفاشر

والاسماعيلية وعباس وشبين والمسلمية والحسينية ونيانزا ومحمد على والزبير والسلطان والخديوى) وسواها ، وقد غرق منها ماغرق واستولى الثوار على الباقى

وقصارى القول أن مصر خلقت السودان خلقا جديدا من جميع النواحى

وقد ثبت ثبوتا قاطعا أن نفقات السودان كانت تربو على إيراداته طوال عهد الحكم المصرى وأنه كان يحتاج فى أغلب السنين الى مبلغ يتراوح بين المليون والثلاثة لتغطية العجز ـ الأمر الذى فكر من أجله المغفور له سعيد باشا فى ترك السودان لولا توسل أهله وإلحاحهم ـ والذى ساقته انجلترا كأقوى حجة لتخلى مصر عن السودان

فاذا فرضنا أنه كان يحتاج فى المتوسط الى مليون جنيه سنويا لكانت جملة ماأنفق على تعميره من عهد محمد على حتى قيام الثورة المهدية اكثر من ستين مليونا من الجنيهات

ولننظر الآن الى ما خسرت مصر فى ابان الثورة وبعدها :ـ

(١) خسر جميع المصريين الذين كانوا بالسودان دون إستثناء كافة أموالهم وأمتعتهم وأملاكهم وعقاراتهم وكان أكثرهم أغنياء ـ فلا تقدر خسارتهم بأقل من عشرة ملايين من الجنيهات

(٢) استولى الثوار على جميع الأسلحة والذخائر والخزائن الأميرية والأموال وكافة ممتلكات الحكومة ومنشآتها فى ثلثى قرن من الزمان بما لايقدر ثمنه بما دون العشرين مليونا

(٣) خسرت مصر تجارتها مع السودان زهاء العشرين عاما وكانت صادراته ١١ مليونا ووارداته نحـــو ثلث هـــذا المبلغ — وقدرت الخسارة بمليونى جنيه سنوياً وجملتها حوالى أربعين مليوناً

(٤) أنفقت مصر ١١ مليون جنيه فى سبيل استرداد السودان

(٥) بلغ مجموع ما أنفق على السودان من سنة ١٨٩٩ إلى الآن كالآتى :—

جنيـــه	
٥٣٢٣٦٩٦	السلف المعطاة من أجل الأعمال المتعلقة بنمو السودان من سنة ١٨٩٩ لغاية سنة ١٩١٤
٥٣٥٣٢١٥	الاعانات الممنوحة سنويا لسد عجز الايرادات من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩١٢
٣٤١٨٨٠٥	المصروفات العسكرية الخاصة بالسودان من سنة ١٩١٤ لغاية سنة ١٩٢٢
١٥٠٠٠٠٠	مبلـــغ ماصرف عـــلى الســـودان فى سنـــتى ١٩٢٣ و ١٩٢٤
٤٥٠٠٠٠٠	مادفع للسودان من سنـــة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٠ بواقع ٧٥٠ ألف جنيـــه سنويا
٢٠٠٩٥٧١٦	الجملة

فجملة ما أنفق على السودان لايمكن أن يقل بحال من الأحوال عن مائة وخمسين مليونا من الجنيهات دفعتها مصر من دم أبنائهـــا مقابل ٧٩٨٨٠٢ جنيها اضطرت انكلترا الى النزول عنها لمصر فى فبراير سنة ١٨٩٦ عنـــد الشروع فى حمـــلة دنقلة

فيكون ماخسرته انكلترا بالنسبة لمصر من الأموال هو :

نصف فى المـــائة

وتكون دعوى التعمير والنفقات قـــد انتفت بهذه المقارنة الصريحـــة وتلك الأرقام الناطقـــة

الادارة المصرية والادارة الانكليزية

(١) وإننا بطلبنا إرجاع السودان
الى مصر نريد ان نجعله شريكا له
مالنا وعليه ماعلينا

(من مذكرة الوفد لمؤتمر الصلح فى سنة ١٩١٩)

(٢) لقد كان للمصريين قبيل احتلال
الانكليز السلطة التامة فى السودان
ولكنهم أساءوا السياسة والادارة
بدرجة دعت السودان الى
طردهم فقد كانوا دخلاء
ظالمين

(حديث المستر لويد جورج المنشور بالعدد ١٦٤٢٤
من الاهرام الصادر فى ٢٨ اغسطس سنة ١٩٣٠)

يحاول الانكليز أن يلقوا فى روع اخواننا السودانيين أننا نريد استعبادهم واستعمار بلادهم وهذا امر لم يفكر فيه مصرى على الاطلاق ولم يدر فى خلد أحد يوما ما ولا يجوز بحال من الأحوال ان يصدقه مواطنونا الاعزاء اللهم الا اذا جاز لأهل الولايات المتحدة الجنوبية أن يصدقوا أن أهل الولايات الشمالية يتحكمون فيهم ويستغلون بلادهم أو يظن سكان بافاريا أن قطان بروسيا يتسلطون عليهم

على أنى جازم بأن شيئا من تلك المزاعم والأوهام لايمكن ان يجوز على عقول مواطنينا الأذكياء وهم يعلمون من التاريخ

أن مديريات السودان كانت ترجع فى أغلب الاوقات إلى مصر فى شؤونها المباشرة دون تدخل الحكمدارية — شأنها فى هذا شأن المديريات المصرية — وأكثر ما حصل هذا فى عصرى سعيد واسماعيل ولم يبطل العمل به الا عندما تولى الحكمدارية غوردون وبناء على الحاحه تمهيداً لما حدث بعد ذلك من المصائب

أنا لا أستطيع أن أنكر أنه قد حدثت بعض المظالم فى السودان فى العهد البائد ـ ولكن هذا العهد كان شؤما علينا وعلى اخواننا سواء بسواء ـ فقد كان حكامنا وحكامهم (أعنى المديرين ورجال الادارة) من ظلام الاتراك يسوموننا جميعا سوء العذاب ـ وفى الوقت الذى كان يستعمل فيه (عقاب الهرة) فى الجنوب كانت (الفلقة والكرباج) هى العقوبة السائدة بالشمال ـ وكانت سبة (عبد) بالسودان تقابلها سبة (فلاح) فى مصر ـ ولم يكد السودان يعرف حكمدارا مصريا صميما من عهد محمد على فلا يمكن والحالة هذه أن تؤاخذ مصر بجريرة الماضى أياكان نوع المظالم التى حدثت فيه لأنها بريئة منها ولا يد لها فيها

ومع هذا لو أننا قارنا بين العهدين المصرى والانكليزى لكانت النتيجة فى جانب مصر دون انكارا فقد كان للسودان فى عهد الظلم (المصرى) مجلس شورى ينعقد فى كل عام للنظر فى شؤونه وكان أعضاؤه من خاصة أهله ـ يقابله اليوم مجلس الحاكم العام وأعضاؤه جميعا من الانكليز ، وكانت المظالم التي تحدث هناك لاتصل الى مسامع مصر ولو اتصلت بها ماسكتت عنها بدليل أن محمد على ذهب بنفسه

الى السودان لرأب ماصدعه الدفتردار ولم يدع سبيلا لارضاء أهله إلا سلكه

ولما شكا الناس فداحة الضرائب لسعيد باشا رفع اكثرها وأمر بتخفيض الباقى ، وبلغ من فرط حلمه ورحمته أن أصدر عفوا شاملا عن خلفاء الملك نمر قاتل الأمير الشهيد اسماعيل

وبمجرد اتهام ممتاز باشا وهو الحكمدار العام بالظلم والرشوة أمرت مصر بسجنه بسجن الخرطوم والتحقيق معه فيما نسب اليه ولم يشفع له سمو مركزه أو يحل دون ذلك . ولولا ان عاجله الموت فى سجنه لحوكم وحكم عليه جزاء وفاقا

ولقد كان فى البرلمان المصرى الأول عشرون نائبا عن السودان مما يؤيد تأييدا قاطعا شعور مصر من قديم بوحدة البلدين

والسودان منذ تولى الانكليز إدارته لم يعرف من أبنائه مديرا ولا وكيلا ولا مفتشا ولا ضابطا عظيما ولا موظفا كبيرا

أما فى عهد الظلم (المصرى) فكان :ـ

الزبير باشا و سليمان بك الزبير و ادريس بك ابتر و يوسف باشا الشلالى مديرين على التوالى لبحر الغزال

ثم كان :- الشلالى باشا وبعده بساطى بك مديرين لسنار

والياس باشا ام برير مديراً لكردفان

وحسين باشا خليفة مديراً لبربر

والطيب بك عبد الله مديراً لفاشودة

ومحمد بك خالد زقل مديراً لدارة

والنور بك عنقره مديراً لكبكبيه

والسعيد بك حسين وآدم بك عامر مديرين بمديريات دارفور

واحمد باشا أبو سن ومحمود بك احمدانى واحمد بك جلاب

مديرين بالتعاقب للخرطوم

وكان :- محمد بك الجزولى وكيلا لمديرية الخرطوم

واحمد بك مكوار وكيلا لمديرية سنار

وعمر بك العمرابى وكيلا لمديرية بربر

وكان :- على بك عمارة أبو سن مديراً للجمارك

وحمد بك التلب رئيساً لمجلس الاستئناف

ومحمد بك خوجلى قاضياً للخرطوم

وعثمان بك حاج حامد قاضيا لخط الاستواء

والفكى (الفقيه) الشيخ الأمين الضرير شيخا للاسلام

والبكوات . أبو بكر الجركوك والخليفة ود أرباب ومحمد

عبد الرحمن ود البشير وادريس النور وعبد الرحمن بان النقا
والفضل ابراهيم وغيرهم أعضاء بمجلس الاستئناف
وكان :ـ بساطى بك المحسى باشكاتبا لمديرية الخرطوم
والعوضى بك المرضى باشكاتبا لمديرية كسلا
وحسن افندى الشريف معاونا لمديرية بربر
ومحمد افندى النصرى معاونا لمديرية بحر الغزال ... الخ

وكان من بين القواد العظام :ـ

الماظ باشا . وآدم باشا . و فرج الله باشا . و فرج الزينى باشا و يوسف الشلالى باشا . و صالح باشا الملك . و السعيد حسين باشا وحسن ابراهيم باشا . و محمد على حسين باشا . و خشم الموس باشا و النور بك محمد . و سرور بك بهجت . و بخيت بك بطراكى و محمد بك السيد . و سليم بك مطر . و النور بك عنقرة . و فرج الله عزازى . وعشرات سواهم

وكان جميع عمد القبائل ونظار الاقسام وخاصة أهل البلاد وكبار الموظفين المدنيين يحملون الرتب والنياشين أسوة بالمصريين بل ربما زاد عدد حاملها من الأهلين على عددهم من أعيان الفلاحين المصريين واذكر منهم على سبيل المثال :ـ

بشير بك ود عقيد عميد الجعليين . وعبد القادر باشا ود الزين شيخ مشايخ الخرطوم وسنار وأول معاون سودانى للحكمدارية

وادريس بك ود عدلان زعيم الفونج ، واحمد بك ابو جن عمدة قبيلة الحمدة ، وعلى بك البخيت ناظر بنى عامر ، وعبد القادر بك ايله عمدة الخلانقه ، ومحمد بك موسى زعيم الهدندوة ، واحمد بك دفع الله عين اعيان كردفان ، ومحمد بك يس ناظر قسم كردفان واحمد باشا ابو سن عمدة الشكرية وابنه عوض الكريم باشا وحفيده على بك ، وكيكوم بك ملك الشلوك ، وعلى بك سالم عمدة الكبابيش وحسن بك ام كادوك عمدة البرنو ، وصالح بك شنقة ناظر القلابات ، ومحمود بك زايد عمدة الضباينة ، وبشارى بك ود بكير عمدة بنى هلبة ، والارباب بك ود دفع الله ، وعلى بك الخبير ، وابراهيم بك البردينى ، ومحمد باشا زيد ، ومحمد بك البلالى ، وقناوى بك ابو عمورى ، وصالح بك خليفه ، ومحمد باشا امام الشهير بالخبير وغيرهم ممن يعدون بالمئات

وكان لهؤلاء وامثالهم من العمد والنظار والزعماء ومن أسلفت من كبار الضباط والموظفين القول الفصل فى شؤون بلادهم - بل كان من الضباط والجنود السودانيين من اشترك اشتراكا فعليا فى الثورة العرابية لان مصر لم تكن تفرق بين المصرى والسودانى ولا بين الابيض والاسود من ابنائها

فلما ان لعبت أصبع الانكليز فى إدارة البلاد وآلت ولاية الحكم إلى غوردون للمرة الاولى فى عصر اسماعيل - بناء على رجاء ولى عهد انكلترا ووساطته - أقصى المصريين والسودانيين عن الوظائف الكبرى وكف أيديهم عن ادارته ونصب بدلهم من الاجانب :-

جسى باشا ، وجيكلر باشا ، والدكتور شنيتزر (امين شابا) وفردريك روسى ، وسلاطين باشا ، ولبتون بك ، ورالبا بك ، ومسنجر باشا وتشرمسيد باشا ، ومارنوا بك ، ودى كوتلجن وكوستى بك وميسون بك ، ومليانو بك ، ومركوبولى بك ، والدكتور زور بخين بك ، ومسداليه بك ، واملياني دانزنجر ، وبرجوف بك وجوتفرث روث ، وجوست جويزى ، وسواهم

واتخذ منهم مديرين ومحافظين ووكلاء واطباء ومفتشين وكتبة ومعاونين ـ وهم مابين انجليزى وايطالى ونمساوى والمانى وروى وما لااعرف ايضا

فاختلت ادارة السودان وكان لابد من اختلال العالم كله لو قبضت على أزمة الحكم فيه عصبة امم من الخليط الذى ذكرت فما بالك والسوان لايعرف هؤلاء ولا هم يعرفونه !!!

واذا كان السودانيون قد نقموا من سعيد باشا تعيين أراكيل بك حاكما عليهم ـ وهو شرقى مثلهم ـ ولولا حكمة اراكيل وحسن تصرفه لقامت الثورة ـ فكيف لايثورون وقد اصبح الحكام بأجمعهم من الأجانب الذين لايفقهون لغة البلاد ولا يفهمون دينها ولا يعقلون شيئا من عاداتها وأخلاق أهلها

فهؤلاء هم أهم أسباب الثورة وفى أعناقهم ضحاياها وعلى رؤوسهم تنصب دماء شهدائها من الجانبين المصرى والسودانى

عهـــد الثـــورات
والثـــورة المهـــدية

كان السودان وديعا هادئا لايكاد أحد من سكانه يتوهم الخروج على أولى الأمر أو تحدثه نفسه بالجنوح إلى الثورة . فما عتم أن حل به (لورنس القرن التاسع عشر) وأعنى به غوردون . باسم القضاء على تجارة الرقيق حتى قام ينكل بالجلابة وآلهم وذويهم وطفق يقضى عليهم بالاعـــدام ويصادر أموالهم ويستصفى أملاكهم ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر . البرىء منهم بجريرة المذنب . فى الوقت الذى كان يعلم فيه حق العلم أن أبناء جلدته بالمستعمرات الانكليزية يأخذون أمثال هؤلاء بالهوادة واللين متوخين فى ذلك كل ما أوتوا من دراية وخبرة بطبائع الأمم . فكان هذا العمل من جانبه هو ومن عدّدت من أعوانه أول ما أثار علينا ثائرة السودانيـــين إذ أيقنوا أن مصر قد آثرت أن تستعين بأولئك الأجانب (الكفار) للانتقام منهم والعبث بدينهم . وقد قيل ان هذا كان من الأسباب الرئيسية التى دعت (عثمان دقنة) أخطر ثوار السودان وأشد أنصار المهدية وأعظم قواد المهدى إلى الاندماج فى الثورة والقيام بنصرتها بكل ما أوتى من جلد وشجاعة ودهاء . لأن مفتشا من عمال غوردون صادر أمواله ظلما وعدوانا وكانت تبلغ زهاء العشرة آلاف جنيـــه لمجرد الاشتباه فى اشتغـــاله بتجـــارة الرقيق . فأحفظه ذلك عـــلى الحكومـــة وما برح يتربص بها الدوائر حـــتى قام المهدى فناصره بكل قواه

وانتهز جماعة الموتورين والأشقياء تلك الفرصة وقاموا بالثورة تلو الثورة فقام سليمان الزبير فى بحر الغزال وخلفه رابح . وثار أهل دارفور بزعامة أميرهم هرون الرشيد . كما ثار أهل كردفان برئاسة الصباحى . ولم يكتف لورنس القرن التاسع عشر باذكاء نار كل تلك الثورات . بل قام يناوىء الأحباش ويستثيرهم للخلاف مع مصر ففشلت دسائسه ودارت عليه الدائرة ولم يجد بدا من الاستقالة ورجع إلى قومه ملوما محسورا . وأبت الأقدار إلا أن تجعله وقودا للنار التي أشعلها إذ عاد إلى السودان لاجلاء المصريين عنه فلقى حتفه فيه

وانتهز المهدى بدوره تلك الفرصة النادرة وقام يدعو قومه للتخلص من تلك الادارة العجيبة ولم يجد بدا من التترس بالدين ليقينه بأنه الوتر الحساس فى البلاد

تطور الشعور تطورا غريبا . فبعد أن كان المثل المحبوب لدى عامة أهل السودان (الترك لبسونا القميص وعلمونا الحديث) صاروا يتنافسون فى إيراد الأمثال الدالة على الحفيظة والنقمة من المصريين والتحرق لقتالهم

فبينا ترى فريقا يقول (هواى هواى أسير للمهدى فى قدير) إذا بك ترى الثانى ينشد (بشاير الخير جات لينا — واليوم ظهر مهدينا) بينما الثالث يقسم (وحاة قولى صواب — خنق قميركم غاب) فيردد الرابع (ألف فى تربة ولا قرش خردة فى طلبة) ويترنم الخامس بقوله (ود الريف شين جابه حربه وكوكاب فى جعابه) ... الخ

استعرت نيران الثورة إذن . وكانت ولاية الحكم قد آلت بعد استقالة غوردون إلى رجل هو أضعف الناس طرا لا الولاة فقط . ذلكم هو رؤوف باشا الذى وصفته الجمعية الوطنية المصرية السودانية بالخرطوم اليق وصف وأصدقه إذ وجهت اليه منشورا عنوانه : (كنا نحسبك رؤوفا فرأيناك خروفا) والحق أنه كان فى ضعف النعاج

ذهبت طائفة من المؤرخين إلى أنه بعد ما أخطأ الخطيئة الأولى التي ترتب عليها اشتعال الثورة وبلوغها أشدها . وهى إرساله فصيلتين (بلوكين) من الجنود النظامية تحت إمرة ضابطين إلى جزيرة آبا وإسراره إلى كل منهما بأنه قائد الحملة وتفهيم أبى السعود العقاد بك معاون الحكمدارية فى نفس الوقت أنه القائد الأعلى لكليهما . الأمر الذى دعا إلى تنازع الرئاسة فالفشل فذهاب الريح وتسبب عن ذلك أول هزيمة منى بها الجيش المصرى فى تاريخه المشرف بالسودان . كما نجم عنه علو كلمة المهدى وارتفاع شأنه وبعد صيته

على أثر تلك النكبة عقد مجلساً استشارياً من خاصة أهل الخرطوم وذوى الرأى فيها فقال له الشيخ شاكر الرئيس مفتى السودان يومئذ (يحسن بمولاى الحكمدار أن يتولى القيادة بنفسه ليستأصل الشر من جذوره ويقضى على الثورة فى مهدها قبل أن تستفحل) فرد عليه قائلا (خسئت أيها الشيخ أتريد أن ترمل زوجى وتيتم أطفالى) !!!

هـــذا هو الحاكم الشجـــاع والقائد الباسل الذى لم يؤثر عنه طوال حياته الا ترؤسه للمجلس العسكرى العـــالى الذى انعقد لمحـــاكمة عرابى باشا والحـــكم عليه بالاعدام

فلمـــا توالت الهزائم شعرالعرابيون بخطورة الثورة وعلموا بما كان من جـــبن رؤوف وســـوء تصرفه فبعثوا بخير القواد إلى هناك رغم المحنـــة التى كانوا يجتازونها فى ذلك الوقت ـ وذهب البطل عبد القادر باشا حلمي فقبض على ناصية الحال وأمّن الخرطوم والجزيرة بعد ما أوشكتا على السقوط وسهّد المهدى واقض مضجعه ونكل بانصاره الواحد اثر الآخر حتى جعله يتوسل الى المولى فى كل صـــلاة بقـــوله : (اللهم ياقوى ياقادر اكفنا عبـــد القادر)

وبعث القائد المجـــاهد فى طلب خمسة عشر ألفـــا من الجنـــود المصرية ليضرب بهم المهدى الضربة القاضية ويديل دولته بالسودان وكان الأمر قد آل إلى الانكليز ـ فأبت عليه السياسة الانكليزية ذلك ولم تكتف برفض طلبه بل اتهمته لدى الخـــديوى توفيق وحـــكومته الضعيفـــة بالجنـــوح إلى الاستقلال ـ فأقصى عن وظيفته وولى علاء الدين باشا مكانه وارسلت إليه ١٢/٩٠٠ جنـــدى من فلول جيش عرابى ليوردها هكس موارد البوار والدمار ـ وابى هكس الا أن تكون له القيادة أو يستقيل فنزلت مصر المهيضة على ادارته وأقرت جعله قائدا أول وعلاء الدين قائدا ثانيـــا وضربت بنصائح عبـــد القادر باشا البطل المجرب عرض الأفق فـــكانت النتيجة المعروفة التى تنشق لهـــا مرارة كل ذى قلب

ورأت السياسة الاستعمارية ان تتم النكبة فاستقدمت غوردون وبعثت به الى الخرطوم لاجلاء المصريين الباقين بالسودان ظاهرا ولافنائهم والقضاء عليهم فى الواقع

ولاقى المصريون عسكريين ومدنيين الأمرّين على يديه طول مدة الحصار - ومن الغريب أنه فى الوقت الذى كان الموت يختطف منهم بالالوف - وفى الوقت الذى قبلوا فيه عن طيب خاطر أن تكون جراية الجندى المصرى مائة درهم من الذرة فى حين أن زميله من السودانيين والاتراك والمغاربة كانت جرايته مائة وخمسين وفى الوقت الذى نفدت فيه المؤونة وقنعوا بأكل الصمغ والجمار والجيف والجلود . بينما وجد لدى قائدهم الذى قيل عنه كذبا انه شارك ابأس جنوده شظف العيش ومرارة الجوع . فى يوم قتله (طبق به بيض مقلى بالسمن وبجانبه علبة من اللحوم فى وسطها شوكة وقطعة من السكر فى طبق آخر) والذى قال فوزى باشا إنه كان يجد له فى كل يومين أو ثلاثة دجاجة هزيلة أو زوجا من الحمام الطاعن فى السن

أقول من الغريب أنه فى هذا الوقت . وبالرغم من الطاعة العمياء والصبر الجميل والقناعة المدهشة . صفات الجندى المصرى من قديم الزمان . كتب القائد الشريف الوفى المخلص إلى اللورد ولسلى قائد حملة انقاذه فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ كتابا يقول فيه (لاتدعوا العساكر المصرية تأتى إلى هنا . تسلموا قيادة الوابورات منهم وأخرجوهم منها فأنه لافائدة فيهم) وهو يقصد بهذا جنود بعثة

نصحى باشا الذى نجح حيث فشل استيوارت الانكليزى

ولكن الحملة . لأمر ما . لم تنقذه فمات ومات معه أولئك الجنود البواسل (الذين لافائدة فيهم) بعد ما دافعوا عنه وعن الخرطوم أعظم دفاع ولم ينج منهم الا طويل العمر طويل أيام البؤس والشقاء والويل والضراء

سقطت الخرطوم وبسقوطها سقط السودان كله . بقطع النظر عن حاميتى كسلا وسنار . فاطمأنت السياسة الانكليزية وراحت تبيت الغدر من جديد للمضى فى تدبيراتها

وحدث ماحدث بعد ذلك مما هو معروف ومشهور — وأعيد فتح السودان بجنود مصرية وأموال مصرية ثم كانت اتفاقية سنة ١٨٩٩ المشئومة فماذا تم بالسودان من يومها الى الآن لم يكن بمال مصر وأيدى المصريين — ؟ ؟ ؟

إدارة السودان

من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٢٤

أنفقت مصر ٣/٥٠٠/٠٠٠ جنيه لمد السكك الحديدية . تلك السكك التى قال عنها أحد الضباط الذين عملوا فى انشائها إنه توجد تحت كل شبر منها جثة جندى مصرى . وبلغ مجموع ما أنفق فى سبيل استعادة السودان ١١ مليونا من الجنيهات وبلغت تكاليف ميناء بور سودان مليونا

وقامت مصلحة واحدة . هى مصلحة الاشغال العسكرية . بعمل المنشآت التالية فى مدينة الخرطوم وحدها فى ربع قرن من الزمان (حديث صاحب السعادة اللواء محمد لبيب الشاهد باشا المنشور بالعدد ٨٣ من الدنيا المصورة الصادرة بتاريخ ٢٧ يوليه سنة ١٩٣٠) :ـ

سراى الحاكم العام . دواوين المالية والحربية والحقانية والداخلية والزراعة والبريد والتلغراف . ومساكن لكبار موظفيها (وكلهم من الانكليز) . مكاتب تسجيل الأراضى . مخازن مصلحة الصحة . المطبعة الأميرية . قشلاقات سعيد واسماعيل وتوفيق وعباس بضواحى الخرطوم . ثلاثة قشلاقات كبرى بالخرطوم بحرى للطوبجية . خمسة قشلاقات للانكليز . مساكن لضباطهم . مخازن الأسلحة والمهمات والجبخانة والبارود . طابية الدفاع الكبرى . مخازن المهمات والورش . قشلاق قسم الأشغال العسكرية . ورش ومخازن قسم الأشغال الملكية . السجن العمومى . كلية غوردون . جامع

الخرطوم . مساكن لصف الضباط الانكليز . مخازن تعيينات الجيش المصرى . مخازن وورش مصلحة وابورات النيل والمراكب . رصيف أمام مدينة الخرطوم . مستشفى الجيش . مديرية الخرطوم . مساكن لكبار موظفيها . إدارة المصلحة البيطرية ومستشفاها . قشلاقات البيادة بأم درمان . قشلاق البيادة الراكبة

ذلك ماتم فى الخرطوم وحدها . فما بالك بما أنشىء فى جميع الأنحاء الأخرى وعلى الأخص بحلفا وأبى حمد والعطبرة وشندى وخورشمبات وود مدنى وكسلا والقضارف وسواكن وبور سودان والأبيض والنهود وبارا والدلنج وتالودى والدويم والتوفيقية والسوباط والبيبور وبلاد دارفور وبحر الغزال ومنجلا ؟

لقد كان للضباط والموظفين الانكليز فى كل جهة من هذه أحياء مستقلة قائمة بذاتها فى أجمل البقاع ملأى بالدور والقصور محفوفة بالحدائق النضرة دونها قصور الزمالك (وفللات) المعادى

وبينما يرابط الجنود البريطانيون بالخرطوم وبعض الحواضر ويستمتعون بسكنى أجمل الأحياء وأرقى المنازل ولهم اطيب العيش وأسعد الحياة حين يريحون وحين يسرحون . كان جنود أورطة السكة الحديدية وهى أكبر أورط الجيش المصرى يقاسون شظف العيش ومر الحياة فى السهر على صيانة تلك السكك وتعهدها بالاصلاح كلما دمرتها السيول أو جرفتها الرياح أو غمرتها الرمال متحملين فى ذلك كل أعباء العمل المضنى الشاق فى حمارّة القيظ وزمهرير

البرد بين عصف الزوابع وقصف الرعود وويلات (الهبوب)

وكان إخوانهم من جنود باقى الأورط يقومون فى الحين بعد الحين باخماد الحركات الثورية الداخلية التى زادت على المائة والعشرين حتى ابعاد الجيش المصرى عن السودان. وكان عليها الغرم دائما. وللادارة الانكليزية (حكومة السودان) الغنم على كل حال

أما عن السياسة الانكليزية فى إدارة السودان فحدث ولا حرج عن طرائق الاستعمار وسبل الاستغلال وضروب الخديعة والختال. وحسبك أن تطلع فيما يلى على بضع فقرات من كتب بعثت بها إلى صديق لى فى سنتى ١٩٢٣ و ١٩٢٤ طلب إلىّ أن أعرفه عن الحالة فى السودان وكيفية إدارته :—

١ — من كتاب

قد تظن أن معلوماتى محدودة لأنى لاأجوب أنحاء السودان فلا أستطيع أن أطرفك بوصف القليل من مختلف المناظر والأصقاع ولا الكثير من العوائد والطباع. وهذا صحيح من هذه الوجهة فقط، أما من وجهة آثار السياسة الانكليزية فى البلاد وميول أهلها وذلك مايهمك ويهم مصر والمصريين. فانى أستطيع أن أحدثك عن البلاد من أقصاها إلى أقصاها اعتمادا على أن الأبيض التى أقيم بها ليست ثالثة مدائن السودان بعد الخرطوم وأم درمان فحسب. بل على كونها الحد الفاصل بين المدنية والهمجية

وجماع مختلف القبائل العربية والزنجية وطريق القوافل الذاهبة والآيبة من دارفور وجبال النوبة وبحر الغزال . وحاضرة أكـــبر المديريات عمرانا وأعظمها شأنا . والعاصمة الأولى للمهدية فى أنضر أيامها وأزهر أوقاتها . وفوق ذلك . وا أسفاه . أوسع مقبرة ضمت رفات أولئك الأبطال الشهداء الذين رووا رمال صحراوات كردفان بدمائهم الزكيـــة تفانيا فى الدفاع عن علم مصرنا المحبوبة الذى طوى هنـــاك لآخر مرة فى موقعة شيكان عـــلى بعد مرحلتين من هنا فى مأساة هكس المشهورة . ولربما أحدثك عنها قريبا فقد وعـــدنى أحد الأعيان بأن يرينى بقـــايا عظام قومى الـــتى لم يعن أحد بدفنها حـــتى يومنـــا هـــذا

فأنت ترى هنا . فى أسواق الأبيض . من الأعراب البقارى والجعلى والشايقى والجميعابى والجوامعى والرزيقاتى إلى جانب إخوانهم من عبيـــد النوبة وبحر الغزال والجهات الاستوائيـــة وأشباههم من الفلاتة والتكارنه والفوراويـــين (آل دارفور) والبرقاويين وسواهم من الأحباش والمولدين . وترى الجميع على اختلاف أجناسهم وتعدد صفاتهم وتبلبل ألسنتهم والأعراب منهم على الأخص . وهم العنصر السائد بكردفان . يتدفقون من كل الآفاق عـــلى الأبيض فى زمن الخريف لتصريف بضاعتهم من الدواجن والألبان وما اليها وابتيـــاع حاجاتهم من الشاى والسكر أولا وقبل كل شىء فالملابس ونحوها من ضروريات الحياة . وهم فى أثناء ذلك يختلطون بنـــا معشر المصريين لبيـــع تجـــارتهم

ولا مندوحة لمثلى ممن وقفوا أنفسهم على خدمة الوطن وانتهاز كل فرصة لرفع شأنه ومحاولة إيصال النفع اليه بكل الطرق الممكنة من الاحتكاك بكل هؤلاء والتفاهم معهم للوقوف على آرائهم وتعرف سرائرهم . ومع أنك تستطيع أن تقنع نفسك بأنه من أيسر الأمور لديك أن تستطلع أخص خصائص نفسية اعرابى ساذج من هؤلاء بقدح من الشاى وقطعة من السكر فانك متى دخلت معه فى صميم الموضوع وأدرك بعض غرضك بذكائه الفطرى ألفيته يراوغك ويستعمل معك كل ما أوتى من ضروب المكر والدهاء ووجدت نفسك أمام مشكلة عويصة الحل وأنك ما برحت بعلمك ومدنيتك أعجز من أن تقف على سريرة بقاري" أبله

إى وربى ياصديقى هذا هو الواقع ، فبشىء من الاكرام البسيط الذى ماتجاوز قدحا من الشاى وبعض الهشاشة استطعت من أسابيع أن ابتاع من أعرابى عشرين دجاجة بخمسة عشر قرشاً وكان قد قبل اثنى عشر فقط وأصبحت لديه من أحب عملائه . ومنذ أيام قليلة أبى كل الاباء أن يذكر لى شيئا من تاريخه فى جيش المهدية وحقيقة عواطف قبيلته نحو المصريين مع وعدى إياه باعطائه أقة من السكر ورطلا من الشاى إلا إذا أقسمت له على القرآن الكريم بأنى آمن بمهديهم ايمانا حقيقيا

لهذا لا يعلم إلا الله وحده كم ألاقى فى سبيلى من المشقة والخجل بل من الهزء والسخرية ، ولكن كل شى يحتمل فى سبيل مصر

٢ — من كتاب ثان

يؤسفني أن أصارحك بأنى أشعر هنا بمرارة الغربة وألم الاغتراب . وسيدهشك هذا القول مني وسوف تقول يا أسفا على من يرى من حق مصر أن تسترجع أوغندا فوق زيلع وهرر وبربرة ومصوع . ولكن دهشتك ستزول حتما إن أنت علمت أننا لانقيم فى السودان المصرى بل فى مستعمرة انكليزية أظهر ظواهرها صلف الحاكمين ونفور المحكومين لا من هؤلاء وإنما منا نحن المصريين

ولقد حاولت أن أقف على سر هذا الشعور الغريب ففهمت أن منشأه الاعتقاد . الخاطيء أوالصحيح . بأننا أداة لتمكين المستعمرين من رقاب المستعمَرين . وآية ذلك عندهم أنه كلما همّ السودانيون بخلع نير الانكليز أصلتهم النيران أيد مصرية ورؤوس انكليزية . وقد حدث هذا أكثر من مائة وعشرين مرة فى بحر الخمسة والعشرين عاما الفائتة

سألت منذ بضعة أيام سودانيا نابها من الأعيان اعتدت أن أحييه فى طريقى إلى عملى كلما رأيته جالسا مع ضيفانه أمام داره ولاحظت أنه يتفرد أحيانا بالرد على تحيتى دون جلسائه . فى حين أن بعضهم ينظر إلىّ بالنظر الشذر وأكاد أتبين الجفوة والبغضاء فى عينيه فأكاد بدورى اتميز من الغيظ . قلت (أما يعرف جلساؤك قول الله تعالى — وإذا حييتم بتحية — الآية) ؟

قال يعـــرفونها كما يعرفون أنفسهم . قلت فما بالهم لايردون تحيتي وإن ردها البعض فبفتـــور وجفاء

قال . أما الذين لا يردون فيعتقدون أنك (كافر) كقومك لأن العامة يفهمون أن جميع الـــترك وأولاد الريف كفار لأنهم استنصروا بالغردون وأهـــله في حكمهم . وأما الذين يردون فقـــد رآك بعضهم تصلى في الجامع فعـــلم أنك مسلم وسمع من نابهي قومنا من أصدقائي وأصدقائك ثناء عليك . والحق أننا جميعا نعتقـــد أنكم أصل بلائنا وسبب شقائنا . فلو كفيتمونا جندكم لاستطعنا أن نجلي هؤلاء الكفرة . ويعني الانـــكليز . عن بلادنا ضربا بالعصي والسياط . وفوق هـــذا فان الاغابية تعتقد انـــكم لا تحيوننا إلا رغبا أو رهبا كما يلقي الفتات إلى الـــكلاب الضالة إما تقربا اليهـــا أو خوفا منها . فأنتم تحتقروننا ونحن نجتويكم

٣ — من كتاب ثالث

أستأثر الانكليز بجميع الوظائف العسكرية والادارية الكبرى ولم يتركوا للمصريين ولا للسودانيين شيئا يذكر . فهنالك قواد الجيش والحاكم العام وأركان حربه وكل أياديه وألسنته وجميـــع حاشيته وبطانته . وهنالك السكرتير المالي والسكرتير القضائي ومدير المخابرات ومـــديرو جميـــع الادارات ورؤساء كافة المصالح ومـــديرو سائر المديريات ووكلاؤهم . كل هؤلاء من الانكليز

وفوق ذلك فان لكل مركز مفتشا ولبعضها اثنين أو أكثر

منهم أيضا وإلى جانب هؤلاء وكيل مفتش ومأمور ونائب مأمور مصريون فى بعض المديريات ولا فيها كلها

أما وظيفة وكيل مفتش التى يشغلها فى القليل ضابط مصرى برتبة بكباشى فلا أدرى ماهيتها إلى الآن وكل ما استطعت أن أعرفه عن عمل أحدهم أنه كان يقوم بتوزيع السكر على التجار

ولتعلم أن السكر والغاز وبعض المواد الهامة الأخرى تحتكرها الحكومة والسعر الحالى (فى سنة ١٩٢٣) ثلاثة عشر قرشا صحيحا لأقة السكر واثنان وأربعون لصفيحة الغاز

وقد اتصل بى أن لهؤلاء الوكلاء سلطة قاض من الدرجه الثانية (الفصل فى القضايا العديمة الأهمية والغرامة إلى خمسة جنيهات)

وليس بى من حاجة إلى القول بأن أحكامهم يضرب بها عرض الحائط متى رأت السياسة الانكليزية حاجة إلى ذلك

وأذكر والشيء بالشيء يذكر . أن قائم مقام مصريا معروفا هو الآن برتبة لواء كان إلى سنة ١٩٢١ يعمل كوكيل مفتش تحت رئاسة مفتش انكليزى برتبة بكباشى فلما ترقى المصرى إلى رتبة اميرالاى ترقى رئيسه إلى رتبة قائمقام ولما ترقى الوكيل إلى رتبة لواء أصبحت المسألة مكشوفة ومنتقدة فأوجدوا لها حلا بديعا وذلك بجعل وظيفة المفتش ملكية

أما وظيفة المأمور فأشبه شيء بوظيفة معاون الادارة عندنا

أى محقق إدارى . إلا أن مأمورينا هنا يضرب بتحقيقاتهم عرض الحائط أيضا متى رأت السياسة الانكليزية لزوما لذلك

وقد رؤى أخيرا تنصيب مأمورين ووكلاء من السودانيين . وهى سياسة ظاهرها العدل وباطنها الخبث . معناها السطحى احلال الوطنيين محل (الأجانب) وحقيقتها خلق النفور بين المصريين والسودانيين . فهم لايضعون فى هذه المناصب أبناء الأسر والقبائل العربية المعروفة وإنما ينصبون الزنوج وأشباه الزنوج ممن لم ينالوا أى قسط من التعليم والتهذيب لأن معظمهم من خدم وحشم كبار الموظفين الانكليز . ولاريب أن عقلية هؤلاء لايمكن أن تتفق هى وعقلية الضباط المصريين فيحصل الخلاف والشقاق ويعقبها التحاكم إلى المفتش أو المدير الانكليزى ويتشيع هذا أو ذاك للسودانى دائما . فيورث تشيعه الضغينة والحقد فى نفس المتحاكمين . وهكذا قدر فى برنامج السياسة البريطانية أن يبغضنا من السودانيين الحاكم والمحكوم

ونفس سياسة وضع المأمورين من المصريين ذات معان . فالمأمور ومساعدوه منوط بهم تحصيل العشور ، وفى هذا الوقت يمنحون أوسع السلطات فيضربون ويجلدون ويعذبون ويسجنون ويطرقون كل السبل لتأدية واجبهم فيضج الأهالى بالشكوى للمفتشين والمديرين ويتنصل هؤلاء من التبعة . وقد يوبخ المشكو فى حقه علنا من نفس آمره باتخاذ هاته الاجراءات القاسية . ويعفى المتأخرون ويطلق سراح المسجونين ويستعطف المعذبون والمهانون ويسر اليهم

أن هكذا يحكم المصريون . فيدعون للانجليز بالخــير وويل للمصريين

ومما يؤسف له أشــد الأسف أن أغلبية المأمورين المصريين تتحمل هذه التبعات الشائنة راضية صاغرة وما سمعت أن أحـدا منهم أخذته العزة الوطنية والحمية المصرية فوقف موقف الاباء والشمم وأظهر بعض ما تقضى به الشهامة العسكرية اللهم إلا الضابط الوطنى العامل اليوزباشى (صاغ الآن) على افندى موسى مذ كان نائبا لمأمور الأبيض وآخرون لايكادون يعرفون لأنهم أنصاف شجعان

٤ — من كتاب رابع

أتريد أن أدلك على شر مما ذكرته لك فى كتبى السابقة ؟ ؟ ؟ إذن أقسم لك أن أصـدق ما يوصف به السودان انه بلاد الانقسام . بـلاد الشقاق والنفاق . كما سمى العراق قديمـاً الامام على كرم الله وجهه

فهناك انقسام فى صفوف الضباط وانقسام فى صفوف الموظفين وانقسام فى صفوف الأهالى وانقسام فى صفوف القبـائل وانقسام فى صفوف العشائر وانقســام فى كل شىء وانقسام فى كل زمان وانقسام فى كل مـكان

فالشقاق سائد بين الضباط المصريين والضباط السودانيـين ومستحكم بين سائر الضباط والموظفين المدنيين

وهناك شقاق بين الموظفين أنفسهم . فلا تكاد ترى كاتبا يتفق

مع مترجم . وهناك شقاق آخر بين موظفى الحكومة المصرية وموظفى حكومة السودان وشقاق أكبر بين العرب والزنوج ، وشقاق عام بين كل قبيلة وأختها ـ فسياسة .(فرق تسد) ظاهرة للعيان

وهذا هو السر فى أن كلمة انكلترا هى العليا وكلمتنا هى السفلى . وحق والله للانجليز أن يترنموا دائما بنشيدهم القومى (احكمى يابريطانيا)

٥ — من كتاب خامس

سمعت طرفا من أنواع العدالة الانكليزية فى إدارة السودان ليس لانكلترا بعدها أن تعيرنا بالظلم :ـ

(ا) أتعرف التحية التى فرضها اعدل مستعمرى العالم على عبيد النوبة الذين اشتهروا بشدة البأس وقوة المراس ؟

يجب على النوبى متى رأى رجلا من رجال الحكومة أن يقف فى الحال ويرمى سلاحه على الأرض ويرفع يديه إلى ما فوق رأسه ويخرج لسانه. ومعنى هذا أنه سلم سلاحه وأصبح مجردا وكف عن السب والشتم وقدم فروض العبودية والخضوع

أفكان يفعل هذا أقسى الحكام الأتراك فى أتعس أيام جبروتهم ؟ كلا ورب الكعبة

(ب) للمفتش الانجليزى أن يفرض الغرامة التى يراها . ومن أروع أنواع العدالة . أن بعض هؤلاء المفتشين يفرضها على

الظالم والمظلوم والشهود أيضا

(ج) مفروض على الأهالى والموظفين المدنيين تحية كل موظف انكليزى يقابلونه فى طريقهم ويجب على كل راكب بالغا ما بلغ شأنه أن يترجل متى رأى أحدا منهم

(د) نصبوا من الوطنيين عمـــدا ونظارا على القرى والحلال وأعطوا لصنائعهم من أولئك من السلطان فوق ما كان للمماليك بمصر وشر ما سمعته أن للبعض أن يفرض الغرامة على من يشاء من رعاياه ويأخذها لنفسه . وأغرب ما علمته أن أحدهم استقام له الأمر فى حلته وانقطع دابر الشـــكايا من فرط ظلمه فضاقت به الحيل واحتاج إلى المال فأتى باحد المغضوب عليهم من قومه وقال له بلغني أنك قد اسأت فيما مضى إلى المرحوم فلان وعليك الآن أن تدفع غرامة قدرها كذا . فجن جنون الرجل وذهب يشكو إلى المفتش البريطانى العادل فكان جوابه أن فلانا ثقة ولا سبيل إلى تكذيبه وأجبره على دفع الغرامة اليه فكان كالمستجـــير من الرمضاء بالنار . افهذا أبأس ياصديقى أم الخروف فى حكاية الذئب والحمل المشهورة ؟ . لاريب عندى أن هذا ابأس . لأن ذاك لم يحتكم إلى أحد وكان خصمه هو الحكم . أما هذا فقد احتكم ولكن إلى أظلم وأغشم

فمن هؤلاء العمد والنظار انتخب الوفد السودانى الذى ذهب إلى انكلترا فى سنة ١٩١٩ ولقن إعلان غضبه على المصريين وحكمهم ورضائه عن الانكليز وعدلهم . فليفهم المصريون هذا وليعلموا

٦ — من كتاب سادس

أثقل المستعمرون كاهل الأهلين بمختلف الضرائب . فتجبى منهم على الأراضى والمساكن والماشية والانعام والماء والهواء والبول أيضا . وفوق ذلك تجبي على البيع وعلى الشراء وعلى قطع الأخشاب من الغابات وعلى الانتقال إلى مختلف الجهات وعلى كل شىء مهما تفه وحقر

وإن تنس لا تنس أن ضريبة الخروف ثلاثة وثلاثون مليما مع أن متوسط ثمنه ثلاثة أرباع الريال . وإن تنس لاتنس أن الرجل يقضى جلاء نهار وطرفا من الليل فى اقتطاع الأخشاب من الغابات فتتقاضى منه الدخولية ما يقرب من نصف ثمن ما احتطبه . وان تنس لاتنس أن الشخص إذا بدا له أن يفتح نافذة جديدة لتهوية داره وجب عليه أن يدفع جعلا . وإن تنس لاتنس أن على كل مالك أو مستأجر أن يدفع عشرة قروش شهريا ضريبة (جردل البول) وذلك غير عوائد الاملاك والخفر . وقس على هذا

ولا تنس أيضا أن الأحكام العرفية ما تزال مبسوطة على البلاد منذ الفتح الأخير فلا يستطيع انسان أن يرفع صوته باحتجاج

فالسودانى . فى الواقع . مغبون ومظلوم . لايستطيع أن يدرأ عن نفسه ذلك الظلم البين إلا بالضراعة إلى الله بأن ينقذه من استعمار الانكليز والمصريين على السواء . بل المصريين على الأخص لأن المصريين هم الذين يتولون جباية تلك الضرائب الفادحة ويستعملون فى جبايتها الطرق التي ذكرتها لك فى كتاب مضى ـ دع عنك أجور السكك الحديدية والبواخر النيلية فانها فوق مايتصور العقل من الغلاء

٧ — من كتاب سابع

يعرف الانكليز أن الدين هو الوتر الحساس فى البلاد ويعلمون علم اليقين أنه ليس أغلى على عرب السودان من دينهم وأنهم يبحثون عن حتفهم إن حدثتهم أنفسهم بالتعرض له بأية وسيلة من الوسائل. ولهذا اكتفوا بنشر الدعاية بواسطة المبشرين بين الزنوج بالطرق المعلومة . وبما أن هؤلاء بدورهم لايؤمنون بغير الفتشية ولا يبغون عن ديانتهم حولا . فكل جهد يبذل فى هذا السبيل ضائع لا محالة. وإنما هو ضرب من ضروب الاستعمار وتجربة تأخذ مداها وأداة لاستدرار العطف على حكمهم والرضا بعدلهم ويأبى الله سبحانه و تعالى إلا أن يفوت عليهم قصدهم ويعكس غرضهم . ومع ذلك فالأمر جدير باهتمام مصر والمصريين بل سائر المسلمين

٨ — من كتاب ثامن

تسألنى عن مبلغ مايقال عن سياسة اخواننا السوريين بالسودان من الصحة . والحق أننى لا أدرى بم أجيبك . فأنا معجب بهم مقدر لجدهم ونشاطهم . وفيهم الكثيرون من أفاضل الرؤساء وأماجد الزملاء وأماثل النزلاء

صحيح أنهم يحتلون أغلب المناصب الرئيسية بعد الانجليز فى البلاد ، وصحيح أنهم يساعد بعضهم بعضا . ولا غبار عليهم فى هذا . فالجنس للجنس أميل . وتلك طبيعة كل أقلية فى كل

مكان وزمان

أما مايقال عن خدمتهم للسياسة الانكليزية فصحيح أيضا . لأنهم بحكم وظائفهم . أيدى الانجليز العاملة والسنتهم الناطقة وهذا ما يجعلهم فى نظار المصريين والسودانيين فى مركز لايحسدون عليه

٩ — من كتاب تاسع

أقيم سياج متين لمنع اختلاط العرب بالزنوج — غير الرقيق — واستحكم العداء بين العنصرين اللذين يتألف منهما السودان فقالت العرب ليست الزنوج على شىء وقالت الزنوج ليست العرب على شىء — شأن السياسة الانكليزية فى مشارق الأرض ومغاربها — بل لعبت يد التفريق بين العرب ذاتهم فالبقارى يبغض الجعلى وهذا الأخير يحتقر الشايق — وهكذا نرى خلفاء الأمة العربية هنا كأبناء عمومتهم فى شبه الجزيرة

١٠ — من كتاب عاشر

أحزن ما يحزننى أنك تقول فى معرض الرد على — تشبهوا بالانكليز — الانكليز باصديقى لهم فى كل بلدة من بلاد السودان القصور الشاهقة والحدائق المنمقة التى أسست وبنيت على حساب المصريين ومن دماء الفلاحين المساكين — أما نحن فنقطن متفرقين فى (القطاطى والتكلات) أو بيوت من الطين النىء مسقوفة بجذوع الأشجار وبعض (الأبراش) وكل ما يقيها

من الهدم طليها بروث البهائم — وهم يستمتعون بكل السلطان ونحن لاسلطان لنا حتى على خدمنا الذين نؤتيهم أجورهم ضعفين وإذا ادعى منهم مدع لدى المفتش الانكليزى أنه لم يتناول مرتبه أجبر مخدومه على دفعه وفوق هذا يهان ويسجن إن لم يقبل الاهانة

ياقوم استحلفكم بحق مصر ألا تنسوا السودان وثقوا بأن المصرى غريب فى بلاده هنا حقا . وأن السياسة دائبة على فصل الأخوين الشقيقين

لقد فرحتم أن انتصرتم على العدليين (كتب هذا فى أوائل سنة ١٩٢٤) وهم مصريون يختلفون معكم فى الآراء . فوجهوا تلك الجهود للقضاء على دسائس خصومكم بالسودان

اتحدوا اتحدوا فانه . والذى فى السماء إله وفى الأرض إله . لاشيء أنفع من الاتحاد . واجمعوا السهام التي كنتم تراشقون بها وصوبوها لنحور الأعداء الحقيقيين — فان لم تفعلوا — فسلام على مصر وسلام على السودان وعفاء على الاستقلال وعفاء على البرلمان . اه

*

* *

تلك بعض آثار السياسة الجهرية التى استطعت الوقوف عليها بمجهودى الفردى وهى قطرة من بحر وكلمة من سجل . أما السياسة الخفية فعلمها عند الانكليز وحدهم وهى سر تفوقهم الاستعمارى وقبضهم على ناصية الأمم المغلوبة على أمرها

وإذا كانت مصر مع مابلغته من علم ومدنية قد ارتج عليها ولم تستطع أن تقف على شيء من كنه تلك السياسة ، فأحر بالسودان أن يجهلها كل الجهل

على أنى بعد الذى وقفت عليه حتى إبعادى من السودان فى أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٤ . أظلم نفسى وأظلم السودانيين وأظلم الحقيقة إن أصررت على جهل السودانيين بمآرب السياسة الانكليزية . فبتعرفى إلى الكثيرين من خاصتهم وعامتهم وباختلاطي بأوساطهم وبالصداقة التي توثقت عراها بيني وبين الكثيرين من زعمائهم . توصلت إلى معرفة حقيقة شعورهم وأتيح لى الوقوف على خفايا صدورهم وتأكدت أنه لاتكاد تخفى على عقلائهم خافية من أمر تلك السياسة

تبسطت يوما فى الحديث مع رجل من أنبه رجال كردفان واستحلفته بكل عزيز أن يصارحنى برأيه فقال لى مامعناه : (اسمع يابنى . لقد علمنا التعايشى كل ضروب النفاق وجنى على أخلاقنا أكبر جناية حتى لكأنه كان انكليزيا أسود ففرق بين القبائل والأسر لدرجة أن الرجل منا ما كان يستطيع أن يفضى بذات صدره لأمه وأبيه وفصيلته التى تؤويه وما اجتمع اثنان منا يتناجيان إلا وهما يخالان أنه ثالثهما ففشت الغيبة والنميمة وطغى التمليق والزلفى حتى أضحت من صفات السودانيين المكتسبة . فلما جاء الانكليز ورأيناهم يسلكون مجازه وينسجون عل طرازه فيصغون لسماع كل وشاية وينشرون بيننا لحكمهم وعدلهم أوسع دعاية

ويرحبون بكل من اغتر بهم وانخدع بأعمالهم . فى حين أن قومك وقفوا آنا متفرجين وآونة شبه راضين . انصرفت قلوب الناس عنكم إلى من هم أقدر منكم حتى خيل أننا مغرمون بهم متيمون بحبهم . وهم لايفقهون أن التعايشى كان يتوهم هذا من قبلهم

وانى لأصارحك الآن بأننا لانبغي بغير الاستقلال بديلا فلا نريد الانكليز ولانريد المصريين ولا نرضى بملائكة الرحمن أنفسهم إن هم أرادوا استعمار بلادنا . فالعبيد ذاتهم يتفانون فى سبيل الحرية ونحن سادة العبيد فكيف لانفعل مثلهم . فلا يخدعك ما تراه .

أما إذا كانت مصر تعني ماتقول حقيقة وتريد أن تجعل من السودان شريكا له مالها وعليه ما عليها فالسودان عبد مصر وأنا بهذا زعيم)

***

وبعد . فكل ما أنشىء بالسودان غير ما أسلفت . عدا مشروعات الجيزة وخزان مكوار . إنما هو بمال مصر وما خسرت فيه انكلترا مثقال ذرة

فمحض اختلاق واسفاف فى التبجح مايدعيه الانكليز من حق الفتح ومن التعمير ومن التمدين ومن كل الدعاوى العريضة الشهيرة

واليوم الذى تتوهم فيه الامبراطورية فصل مصر عن السودان بالفعل ما يزال بعيدا بعد السماء عن الأرض

والآن وقد انهار صرح الحجج الانكليزية من أساسه حجة إثر حجة فلا فتح ولا ضحايا ولا مال ولا إدارة حسنة ولا عدالة شاملة . لم تبق إلا دعوى إثارة السودانيين فى سنة ١٩٢٤

فلنبحث عمن أثارهم ولنبين إلى أى حد قعدت مصر عن نصرتهم مع أنها لوشاءت لانتهزت الفرصة وقضت على نفوذ الانكليز قضاء نهائيا . ولكن قدّر فكان



حقيقـــة ثورة سنـــة ١٩٢٤

انجلت الثورة المهدية عن فقد عدد لايحصى من السودانيـــين بالرغم عمـا اتصفوا به من الجـلد والشجاعـة والصبر والاقدام . فقد ظلوا يحاربون الانكليز فى شخص مصر سبعـــة عشر عاما متوالية . وهم فى الوقت نفسه قد حاربوا الأحباش والطليان والمماليك المجـاورة لهم من الغرب (المتاخمة لدارفـــور) فضلا عما أنزله بهم التعايشى وقومه من أنواع الظلم والارهاق وضروب العسف والاضطهاد حتى أفنى قبائل برمتها كالشكرية والـكبابيش اللتين كان يبلغ تعدادهما نحو المليون نفس وكاد يقضى على الشايقية والجعليين والبطاينة وسواهم ممن حل بهم سخطه ونزل عليهم غضبه . وفوق هـذا وذاك فقد قضت المجـاعة التي حدثت فى عهده على مئـات الألوف منهم . وأسفرت النتيجـــة النهائية عن تناقص عددهم إلى أقل من النصف . واستولى عليهم ما يستولى على الـكمى المنهزم من علائم الذلة ودلائل المسكنة

وكانوا قد تمنوا أن تنقذهم مصر من ظلم الخليفـة وتعـود بهم إلى ساحة عدلهـا وباحة عطفها وإذا بهم يرونها وقد غلبت مثلهم على أمرها وتولى الانـــكليز شأنها . وما برحوا أن رأوا للانكليز القول الفصل والسلطان الأعلى فى كل شيء . ولقد كرهوا فيما مضى أن تستعين مصر . فى شخص عاملها غوردون . على إدارة بلادهم بعشرات من الأجانب وثارت ثائرتهم لذلك . فبهتوا لما رأوا المئـات من الانكليز يتولون كل ناحية من نواحى الادارة واختلط عليهم

الأمر وأسقط فى أيديهم ولم يسعهم إلا الرضا بقضاء الله وانتهاز الفرصة المناسبة للتخلص من ذلك الخطب الجديد

ولقد علموا بما فطروا عليه من ذكاء أن الانكليز لايستطاع اجلاؤهم عن السودان مالم تتخلص منهم مصر أولا . ولكن مصر نامت وطال نومها . فلما آن لها أن تستيقظ فى سنة ١٩١٩ استيقظ السودان على أثرها . فما قام سعد بمصر حتى قام على عبد اللطيف فى السودان وثريث فى اشهار دعوته ولو لم تعجل انكلترا بارسال الوفد السودانى إلى لندن لتقديم فروض العبودية للدائرة المرنة لظل السودان ساكنا معتمدا على أنه ومصر وحدة لاتقبل التجزئة وأن ماسيسرى على مصر سيسرى عليه حتما ولكن تعجيل الانكليز بارسال (وفد الولاء) قوبل بالامتعاض لدى جميع العقلاء وعصفت بأفئدتهم رياح الشعور والاحساس بما يراد ببلادهم فلم يروا بدا من مؤازرة على عبد اللطيف فى السر ولم يجرءوا على الجهر بآرائهم خشية التنكيل بهم . فبات القدر يغلى ثم يغلى حتى أوشك أن ينفجر

فلما أن شغلت مصر بذلك الخلاف العقيم والشقاق الطائش أشفق السودانيون منه وحسبوا حساب الفشل فاعتصموا بالهدوء والسكينة وباتوا ينتظرون ماتأتى به المقادير . حتى إذا ماجد الجد فى عهد الوزارة الشعبية الأولى وطفق البرلمان يردد ذكر السودان عادوا لاستئناف الجهاد السافر . وأقسم غير حانث . أنه لم يكن بين السودان وبين الاستقلال التام إلا الزعامة الحازمة والعمل الحاسم

شعر الانكليز بخطورة الحال . فقاموا من فورهم بعمـــل عرائض مختلفـــة ضمنوها (إعراب السودانيـــين عن ولائهم لهم وارتياحهم لوجودهم ورضـــائهم عن حكمهم واغتباطهم بعـــدلهم . ونقمتهم من المصريين الظالمين والاشادة بذكر مظالمهم المزعومـــة وفظائع الدفتردار وما إلى هذا من أفانين الكذب وضروب المين)

وقام المستر ولس مدير مصلحـــة المخابرات بنفسه وبمن يثق به كل الثقة من رجاله للحصول على توقيعـــات زعماء القبائل وعمـــد العشائر ونظار الأقسام على حـــدة وتوقيعات العامة وحدها

أحفظ هـــذا العمل الجرىء نفوس الشبان والمتوقـــدين من الأهـــالى فقاموا بحركة مضـــادة وسعوا بدورهم للحصول على توقيعات نفس الأشخـــاص الذين وقعوا لمدير المخابرات وعماله معلنين (أنهم أكرهوا إكراها عـــلى التوقيع للمدير المـــذكور وأن كل ماجاء بتلك العرائض الزائفة باطـــل ولا ظل له من الحقيقة وأنهم لايبتغون سوى البقـــاء إلى الأبد فى حظيرة الوطن الأكبر وأن مصر والسودان جزء لايتجزأ)

وشهد الله أنني وقفت على سر الموضوع من مبـــدأ الأمر وعلمت بحركة الانكليز وهى وليـــدة وآمنت بوجوب القضاء عليها ولمـــا تبلغ أشدها . ويرجع الفضل فى ذلك إلى صـــديق البطـــل الوطنى الغيـــور اليوزباشى (بكباشى الآن) محمـــد صالح جبريل فقد وقف على الحقيقة من الزعيم الباسل عـــلى عبد اللطيف وأسرها

إلىّ فى الحال وزودنى بما وقع فى يديه من الوثائق

فبادرت بمخابرة أولى الأمر بمصر وأخطرتهم بكل التفصيلات وشفعت ذلك بعريضة من العرائض المطبوخـــة فى مصلحة المخابرات وأظهرت تمـــام الاستعداد للقيام بحركة علنية مضادة حتى إذا ما قبض علىّ وشرع فى محاكمتي أعلنت عـــلى رءوس الاشهاد أننى إنما أقابل عملهم بعمل مثله . والبادى أظلم . وقلت إنني مستعد للموت فى هذا السبيل ، وكنت أوقن أن مثل هذا العمل الجدى من قبل المصريين من شأنه . على الأقل . أن يكشف سرهم ويفضح كيدهم ويفوت عليهم غرضهم . وأن مصر تستطيـــع بعد ذلك أن تلزمهم الحجـــة وتثبت عليهم الكيد والدس

ولكني أمرت تلغرافياً بوجوب التريث وانتظار التعليمات . وكنت قد شرعت فى مهمتي بالفعل . ولكن فى السر . قبيـــل ذلك فاجتمع لى نحو الثلاثة آلاف توقيـــع فى بضعة أيام . فاضطررت لايقاف كل شيء انتظاراً للتعليمات

وجاءنى كتاب من الوسطاء بعـــد أسبوعين يقولون فيـــه (إن أولى الأمر لم يقروا رأيى ولم يوافقوا على عمـــلى)

فـــكانت النتيجة انعكاس الآية واتهـــام المصريين بتأليب السودانيين ودس الدسائس للادارة الانكلـــيزية

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ٭٭٭ ونام عنها تولى رعيها الأســـد

وقف المصريون متفرجين . مع الأسف الشديد والألم الممض . ولو وقف مصريو السودان مع اخوانهم وتعاونوا على العمل الجدى . كما ادعى الانكليز زورا وبهتانا . لاستقل السودان ومصر فى سنة ١٩٢٤ . فقد طاشت سهام السياسة الانكليزية وذهلت لما رأته من مظاهر الوطنية وأوشك زمام الأمر أن يفلت من يدها حتى أصبحت تنقض فى يومها الحاضر ما أبرمته فى أمسها الدابر وبادرت باتخاذ أقسى التدابير وأجرتها دون تفكير فى النتائج لفرط ماحاق بها من الفزع والحيرة وباتت تخبط خبط عشواء فى سبيل القبض على ناصية الحال

فلو أن مصر تشجعت قليلا لردت كيدها فى نحرها وخطت خطوة حاسمة نحو الغاية التي تنشدها ولكنها استكانت وجبنت فغلبت على أمرها وكان الذى كان

وان أنت لم تعرف لنفسك حقها *** هوانا بها كانت على الناس أهونا

فما كان يجب أبدا الرضا بابعاد أورطة السكة الحديدية عن السودان . بل كان من الضرورى ردها ورد كل ضابط وموظف قضى (بطرده) لمجرد اتهامه بالاشتغال بالسياسة

وكان واجبا قبل هذا وذاك ارسال النقود التي جمعت باسم منكوبى السودان لاربابها . فالقعود عن ارسالها كان من أهم البواعث لاخماد الحركة وفتور الهمم وخور العزائم

وتحرير الخبر أن كل من كان يقبض عليه من السودانيين فيحاكم

ويحكم عليه بالسجن يتضور أبناؤه جوعا لاعتقال عائلهم . ومن ثم لايرى سواه معنى للجناية على ابنائه . والى هنا يقف اليراع فما كل مايعرف يقـــال (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى)

على أنى أذكر للحقيقة والتاريخ انى بعثت لولاة الأمور فى ذلك الحين ملف قضية محكوم فيها على ثلاثة أشخاص بالسجن ثلاث سنوات وحيثيات الحكم مبنى جلها على (جريمة) الهتاف لحضرة صاحب الجلالة ملك مصر والسودان ، وقلت إن أحدهم ترك من ورائه ذرية ضعافا . لا أذكر عديدها . وكلهم يشكو مرارة الجوع وألم العرى وهم فى حالة تستدر عطف الجماد ، بعد أن حرموا اربعة عشر جنيها كان يتقاضاها عائلهم مرتبا شهريا وذكرت أن أمثال هذا يساقون بالعشرات الى السجون فى كل يوم دون أن يعرفوا مصير أسرهم . فلم يستمعوا الى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ومرة أخرى (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى)

وتلقيت يوما من صـــديق سودانى صورة تلغراف بالشفرة وتعريبه مرسل من قومندان قسم الخرطوم الى قومندان قسم كردفان . حوالى منتصف شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ . يقول فيه مامعنـــاه :ـــ يراد ابعاد البلوك البيادة الموجود بالابيض من الأورطة الثالثة المصرية الى الخرطوم وحلول بلوك انكليزى محله . فاعمل الترتيب اللازم لذلك وعلى قومندان البلوك المذكور أن يفهم أن هناك اضطرابات وقعت

بالقاهرة ترتب عليها قيام الأورطة الرابعة المعسكرة بالخرطوم الى مصر وحلول هـــذا البلوك محلها

فأخطرت بهذا اليوزباشى (بكباشى بالمعاش الآن) ابراهيم افندى تادرس الذى كان قائما باعمال البلوك لغياب القومندان بأجازة قبل أن يخطره قومندان القسم باربع وعشرين ساعة وكان الرجل وطنيا وشهما وبعد التفاهم مع سوانا من صادقى الوطنية ، عرضت جملة حلول ثورية ولكنها رفضت لتغلب الحكمة وأقرت الأغلبية وجوب ارسال استفسار برقى لقومندان الأورطة الثالثة بالخرطوم عقب ابلاغ الأمر لرئيس البلوك من لدن قومندان القسم

فلما أبلغ اليه الأمر فى اليوم التالى وبعث اليوزباشى يستفسر قومندانه جاءه الرد باطاعة الأوامر . وقامت الجنود المصرية واحتل ثكناتها بعد اسبوع واحد جيش انجليزى

وبعثت بهذا وبغيره وغيره لذوى الشأن . ولكن بدون نتيجـــة !!!

ومرة ثالثة (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى)

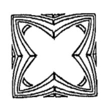
وأخيرا كان لزاما . فى اعتقادى . ويشاطرنى اخوانى السودانيون رأيى أن تموت بضع مئات الضباط والجنود وكل المصريين الذين كانوا بالسودان عند مقتل السردار قبل أن يصل اليهم الأمر الملكى الكريم . ولا يتركوا السودان لقمة سائغة للانكليز

ولو أنى بقيت معهم لفعلت . ولكني (طردت) قبيل ذلك

بحجة أن وجودى خطر ولا ذنب لى إلا الاخلاص للواجب الوطنى

وهكذا ترتب على سكوت مصر كل ما حدث بعـــد ذلك من المحن والأرزاء مما لايزال ماثلا فى الأذهان وواضحا للعيان

فمنذا الذى أثار السودانيين أولا ونكل بهم أخـــيرا ؟؟؟ اللهم فاشهد وأنت خير الشاهـــدين



الخـــاتمة

ليس أدل على حب السودانيين لمصر وتعلقهم بها من كون أهل كردفان مع اشتهارهم بالتدين ومع اعتقاد المستعمرين انهم يحملون بين جنوبهم أشد البغضاء للمصريين . قد قبلوا عن طيب خاطر أن يمتنعوا عن صلاة الجمعة بمسجد الأبيض احتجاجا على حـــذف الدعاء لجـــلالة الملك من الخطبة

فلأول مرة لوحظ فيها اغفال الاسم الكريم ظننت ان الأمر غير مقصود فلما تأكدت أن هـــذا من صغار السياسة الانكليزية . عرضت فكرة هذا الاحتجاج على بعض الاخوان . فقوبل اقتراحى بالهزء والسخرية من جانب دعاة اليأس من المصريين ، واجمعوا على أنى لن أستطيع ان اكتسب موافقة سودانيين اثنين على اقتراحى

فلما كانت الجمعة التالية وانصرف اغلب المصلين قبل أن ينزل الخطيب من فوق منبره ولم يبق فى الجامع على سعته الا بضع عشرات ممن لم يتصل بهم الخبر ولم يفقهوا السر فيما حصل . اكبروا هذا الشعور الرائع . وذهبنا جميعا فاقمنا الصلاة فى فضاء خارج البـــلدة

ولا يزال الزنوج من رديف الأورط السودانية يعتزون كل الاعتزاز بأنهم من جنود (افندينا) ويعتبرون هذا مجدا لهم وفخرا لقبيلهم . ولا يزال من يشتغـــل منهم فى البوليس والخفر يستعمل الاصطلاحات العسكرية القديمة (التركية) الى يومنا هذا

ويذكر العبيد لمصر فضل تحريرهم والقضاء على تجارة الرقيق بينهم ولا ينسى الشلوك ماكان من أمرها معهم يوم استدعى اسماعيل ايوب باشا حكمدار السودان مليكهم كيكوم بك وسلمه ألف رأس من رقيق قومه ضبطتهم الحكومة مع الجلابة

أما العرب فابناء عمومتنا وخؤولتنا . واذا كانت الايام قد ضربت بضرباتها بيننا حينا من الدهر . فقد علموا ما لمصر عليهم من أياد وأن حكومتها السابقة على علاتها كانت بهم أرحم ولهم اصلح من حكومة الدناقلة والبقارة . وفهموا أن الانكليز إنما يستغلون بلادهم بكل طرق الاستغلال حتى تصبح أخصب مزرعة لمعامل يوركشير ولانكشير . وقد ذاقوا وبال فعلهم وخبروا حقيقة أمرهم . وما عهد انتزاع ملكية أراضى الجزيرة من أيدى ملاكها ببعيد

وان ينس حضرة صاحب الفضيلة الحسيب النسيب السيد على المرغنى زعيم السودان غير منازع . لاينس أن اعتزاز مصر بشيعة السادة المرغنية واجلالها لزعيم الاسرة الشريفة وتأييدها لطريقته القويمة كان من اكبر اسباب الثورة المهدية التى خسرت فيها أحب مال وأعز بنين

ولن يعزب عن أذهان حضرات السيد عبد الرحمن المهدى والشريف يوسف الهندى والسيد اسماعيل الأزهرى والاستاذ أبو دقن والشريف حمد النيل والسيز على التوم وأمثالهم من الزعماء والعقلاء والمفكرين ان مصر تعتبر السودان جزءا متمما لها وأنه ليس احب اليها يوم يعود الى احضانها من تعامله معاملة الغربية واسوان وأن فكرة

الاستعمار لم تنبت الا فى رءوس الانكليز أملتها الاحقاد والسخائم وهول الفزع من اليوم الأغر المنتظر

بقى أن يفهم سواد المصريين أن اليوم الذى يتحق فيه فصل السودان عن مصر بالفعل انما هو آخر يوم فى حياة بلادهم ، وأن انكلترا تسعى السعى كله للقبض على نواصينا بالماء ، وأنها تسلب باليمين ماتعطى باليسار فلن ترفع يدها عن مصر من الشمال إلا لتضعها عليها من الجنوب

واذا كان فلاحونا يتقاتلون فيقتلون ويقتلون على مياه الرى وما يزال النيل نيلنا فماذا عساهم أن يصنعوا يوم يمسى النيل انكليزيا ؟

أيها المواطنون

لقد كنا أول من تفرد فاسر فى أذن الزمان أن عهد الذلة والمسكنة قد مضى وانقضى وأنه لن يعود . وآية ذلك أننا تحركنا غداة الهدنة يوم سكن المحاربون ، وثرنا بعيد الحرب وقمنا هدأ الثائرون . فزلزلت الأهرام زلزالها ، وأفضى أبوالهول بكلمة من سره الرهيب . فأصغى له الدهر ، وأنصت العالم أجمع

وكانت مصر أول من أغار على حصون الاستبداد فدك منها معقلا ، وأسبق من فوق السهام الى قلب الاستعباد فأصاب منه مقتلا وأصبحت ثورتها أضوأ نور تلألأ فى سماء الحرية ، وأعلى صيحة أهابت بالنوام أن « حىّ على القومية » ، وأرفع لواء سما ورفرف على هام الوطنية

وعنها تلقت سائر أمم الشرق دروس التضحية والجهاد ، فقضت بالأمل الزاهر على اليأس القاهر ، وما برحت تفتنّ فى طرق الجلاد، وتشتد فى سبل العناد حتى سبقتنا بمراحل ، واضحت الغاية المنشودة منها على قاب قوسين أو أدنى

فيا أسفا على مصر ، ويارحمتاه لنا ، وواعاراه علينا . أيقظنا غيرنا ونمنا ، فصاح وسكتنا ، وسار حيث وقفنا ، وجد وتقاعدنا ، واتحد وتفرقنا . وما ذلك إلا لأن بأسنا بيننا شديد بحسبنا [illegible] وقلوبنا شتى

دعوا الحزبية والتحزب من أجل السودان على الأقل (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) . واتقوا الله فى وطنكم ، ولا تتربصوا ببعضكم الدوائر فتدور الدوائر عليكم جميعا ، وليوقن الكل أن مسألة السودان بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت

وبعد . فلا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ، وأعمار الأمم بالحقب والأجيال لا بالأيام والأعوام . فالاتحاد الاتحاد ، والجهاد الجهاد ، والثبات الثبات ، والدعوة الدعوة إلى مقاطعة كل فرد أو حزب تسول له نفسه أن يرضى بما دون الاستقلال التام لمصر والسودان





